الدكتور محمد مصطفى الشعيني

حرب أكتوبر ١٩٧٣

وإطارها الاجتماعي

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ عبد الخالق ثروت - القاهرة

حرب أكتوبر ١٩٧٣

وإطارها الاجتماعي

الدكتور محمد مصطفى الشعبيني
كلية التربية ـ جامعة عين شمس

١٩٧٤



الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

دار الهنا للطباعة والنشر ـ تليفون ٧١٣٢٧

الإهداء

الى جنود العــرب

الى قــادة العــرب

الذين شاركوا فى صنع ارادة النصر

واعادة نبضات الحياة الى الامة العربية

ان حربنا لم تكن من أجل العدوان ولكن ضد العدوان ، ولم تكن فى حربنا خارجين على القيم ولا القوانين التى ارتضاها مجتمع الدول لنفسه وسجلها فى ميثاق الامم المتحدة الذى كتبته الشعوب الحرة بدمائها بعد انتصارها على الفاشية والنازية ، بل لعلنا أن نقول ان حربنا شرارة الحرب الانسانية ضد الفاشية والنازية ، ذلك ان الصهيونية بدعاويها العنصرية وبمنطق التوسع بالبطش ليست الا تكرارا هزيلا للفاشية والنازية يثير الازدراء ولا يثير الخوف ، ويبعث على الاحتقار أكثر مما يبعث على الكراهية .

انور السادات

١٦ أكتوبر ١٩٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك أيام فى تاريخ الأمم لا تمر كغيرها من الأيام ، وتوجد أحداث فى حياة الشعوب لا تمضى كغيرها من الأحداث . لأن هذه الأيام وتلك الأحداث تمثل منعطفات على الطريق . ان أيام وأحداث أكتوبر ١٩٧٣ يقف عندها التاريخ ليقول للأمة العربية : من هنـــا تبدأ ، اصعدى ، تقدمى .

فى يوم مشرق من تاريخ الأمة العربية ، تقدمت جيوشها باسم الله ، وتحت راية لا اله الا الله لتوقف مد الحركة الصهيونية العدوانية ، ولتضع حدا لآمالها فى التوسع والاستيطان ، ولتحرر الأرض الطاهرة وتعيـد الحقوق المشروعة لشعب طرد من أرضه وأرض أجداده .

وعبرنا ...

عبرنا النكسة والهزيمة

عبرنا اليأس والخوف

وطوينـا ...

طوينا الخلافات والمهاترات

طوينا السلبيات واللامبالاة .

ان بعد العسر يسرا ، وبعد الضيق فرجا ، وبعد الخـوف أمنا ، وبعد دولة مراكز القوى دولة المؤسسات ، وبعـد الفرقة وحدة تحت قيادة مؤمنة تجمع الصـفوف بالحب والتسامح والتواضع ، وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

لقد سكت صوت المدافع والصواريخ ليبدأ هدير البناء والعمران ، بنفس القوة ونفس الثقة ، يحـدونا كل الأمل الذى أعطته لنا حرب أكتـوبر .

ان حرب أكتوبر وأيامها المجيدة ، ينبغى أن تعمق فى وجدان كل عربى ، لأنها رمز الأمل ورمز الأمن ورمز المستقبل ، ويجب أن تتناولها كل الأقلام ، وكل التخصصات بالتسجيل والدراسة والتحليل .

والدراسة التى اقدمها اليوم ، هى محاولة لرسم الاطار الاجتماعى ، وتوضيح الأبعاد الاجتماعية لحربنا المجيدة . بدأتها بالحديث عن الحرب كظاهرة اجتماعية ، وعرض الآراء والنظريات التى ذكرت فى أسباب اندلاع الحروب ، والتى تذهب احداها الى أن الحرب قد تكون الحل الحتمى الذى لا مهرب منه ولا مناص عندما تستنفد كل الوسائل والمحاولات السلمية لوضع حد لحركة اجتماعية عدوانية .

ثم عرضت فى الفصل الثانى ، بالتحليل والدراسة للحركات العدوانية وكيفية نشأة وتعلم هذه الاتجاهات على المستوى الفردى والاجتماعى ، لأمهد لتحليل الحركة الصهيونية وبيان صفاتها وخصائصها العدوانية .

وفى الفصل الثالث تناولت تناولا سريعا أحداث ووقائع حرب أكتوبر ، وأرجو أن تتاح لى فرصة تناولها تناولا أكثر عمقا عندما تهدأ أصداء المعركة .

وفى الفصل الأخير ، حاولت أن أثير قضية بالغة الأهمية ، هى دور التربية والمؤسسات التربوية فى المعركة وما بعد المعركة . وعرضت باسهام بسيط فى هذا الصدد ليكون مجرد خطوات على هذا الدرب الطويل .

والله ولى التوفيق .

مدينة نصر

أول يناير ١٩٧٤ .

الفصل الأول

التحليل الاجتماعى لظاهرة الحرب

الحرب كظاهرة اجتماعية :

تحاول الدراسات الاجتماعية دراسة الانسان والمجتمع والظواهر الاجتماعية الناتجة عن التفاعل بينهما ، ان الناس هم أغلى وأعظم راسمال فى العالم ، وتوجية الاهتمام للانسان هو الواجب المقدس لكل علم ولكل عالم ، وان أعظم ما تستطيع أن تسهم به الدراسات الاجتماعية لحل مشكلات البشرية ، هو أن تقدم خططا وأفكارا ودراسات محققة وموثوق بها تمنح الانسان قدرة على النضال ، وتساعده على التغلب على ما قد يعترضه من عقبات .

والواقع ، أن الانسان يتلمس دائما تفسيرا وايضاحا للظواهر التى تؤثر فى رفاهيته وتهدد أمنه وراحته . ولقد حقق الانسان بهذا الصدد قدرا كبيرا من النجاح ، وتوصل الى كثير من الاكتشافات التى منحته قوة على النضال ، والكفاح ، وساعدته على التغلب على كثير من التحديات . فمثلا ، عندما اكتشف الانسان الأسباب المختلفة للأمراض استطاع أن يضع الخطط المحكمة للوقاية منها وعلاجها ، فليس عجيبا اذن أن سيطرت على المفكرين أن الحرب كذلك ، يمكن منع حدوثها ، بالاكتشاف المبكر للأسباب التى تكمن وراءها ، وهكذا ظهرت كثير من النظريات التى تتعلق بأسباب الحرب وظروف السلام ، يثبط بعضها الهمم ، ويدعو الى اليأس ، ويبعث بعضها على الأمل ويدعو الى التفاؤل ، فالأولى ترجع الحرب الى عوامل بعيدة عن سيطرة الانسان ، ومن ثم فهى حتمية لامفر منها ولا مهرب . بينما جعلت الثانية أسبابها فى متناول الانسان وفى نطاق سيطرة المجتمع المنظم ، ومن ثم يمكن تفاديها والحيلولة دونها .

والحق ، أنه فى محاولة تحليل هذه الظاهرة الاجتماعية المعقدة والبحث عن أسبابها ودوافعها ، لا ينبغى أن نلح بالأهمية على عامل واحد ، أو عوامل معينة ونغفل بقية العوامل . وكذلك لا يجب أن نولى وجهنا شطر نظرية واحدة لا نحيد عنها نتلمس عندها كل التفسير ، لأن هذه النظرية تحجب عنا حقيقة الظاهرة التى نقوم باستقصائها ودراستها ، خاصة أنه يوجد اغراء يجعل الانسان ينزلق نحو التوضيحات البسيطة التى يسهل الوصول اليها دون كبير مشقة أو عناء . ولكن ظاهرة الحرب لا يمكن فهمها بهذه الطريقة ، فظروف الحرب معقدة وأسبابها مختلفة

متباينة ، ويجب دراستها دراسة أوسع وأشمل . وسوف نعرض النظريات المتعددة للحرب والتى ساقها رجال العلوم الاجتماعية . وكل ما يمكن ان نقوله ، أن هذه الأسباب التى سوف نذكرها وغيرها مما لم نحط به ، تتشابك وتتشكل بطريقة أو بأخرى لتفسر العوامل والأسباب التى تكمن وراء الحرب .

وتتلخص أهم الآراء والنظريات التى عرضت لأسباب الحرب فيما يأتى :

أولا : أن الحرب ضرورة لا مفر منها فهى تكمن فى طبيعة الانسان ، فالانسان حيوان مقاتل بطبيعته ولا يمكن تغيير هذه الطبيعة . والحرب مثلها مثل الزلازل والبراكين والعواصف والمجاعات والأوبئة ، يخشاها الانسان ويفزع منها ، ولكنه يقف ازاءها عاجزا لا حول ولا قوة له فهو لا يملك لها دفعا .

ثانيا : أن الحرب تعبير عن حاجة الانسان اللاشعورية لتحطيم المجتمع وتدمير الانسان لنفسه .

ثالثا : ان الحرب عامل أساسى فى تطوير المجتمع ، فهى تستثير التنوع والتغاير الاجتماعى ، وهى تدعو لاختيار الجماعات القوية والذكية والعدوانية .

رابعا : تكون الحرب بمثابة المنشطات أو الفيتامينات الضرورية للنمو والتطور الاجتماعى الصحيح ، الأمر الذى يساعد على تقدم الدول وازدهارها .

خامسا : أن الحرب نتيجة اختلال التوازن بين الدول القوية . فمثل هذه الدول فى تنافس مستمر بينها ، ومن ثم يظل التوتر سائدا .

سادسا : أن الحرب قد تكون من صنع الحكومات أو الطبقة الحاكمة عندما تجد أن الحرب تحقق لها مصالحها وتستعين على ذلك بالدعايات ووسائل الاعلام .

سابعا : أن الحرب قد تكون الوسيلة الفعالة والاجراء الوحيد لحسم المشكلات وفض المنازعات التى لم يمكن التوصل الى حلها بالطرق السلمية والمفاوضات .

نظريات فى أسباب الحرب

وسوف نعرض بالتفصيل لبعض النظريات التى أعطيت عن أسباب الحرب ، ولن تتعرض هذه النظريات لبواعث اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو دينية أدت الى حرب معينة ، ولكنها تتعرض أكثر ماتتعرض، لاستقصاء الجذور العميقة لكل الحروب .

أولا — نظرية البدائيين فى الحروب (١) :

كان البدائيون ينظرون الى الحرب على أنها نتيجة قوى خارجية شريرة تحدق بالعالم ، يقف الانسان أمامها عاجزا لا حول له ولا قوة ، وهى تشبه فى ذلك الفيضانات والعواصف والزلازل والمجاعات والأوبئة التى تهدد الانسان ولا يستطيع شيئا حيالها . وقد اعتقد البدائيون أن مايحدث لهم من نكبات يرجع الى الأرواح الشريرة وما يمارسه الأعداء من سحر ، ومن ثم حاولوا طرقا لتهدئة ثائرة الأرواح الشريرة أو تخويفها ، أى أنهم حاولوا التحكم فى مصادر قلقهم . وبعد الانتقال من عبادة الأرواح الى عبادة الظواهر الطبيعية تقدم الانسان خطوة فى تفكيره عن أسباب الحرب وبواعثها ، فكان يعتقد أن حظ الفرد من التعاسة أو السعادة انما مرده قوى كونية مبهمة ، وهذه القوى لا تبغى خيرا أو شرا ولا يحدوها قصد أو ارادة ولكنها تعمل ببساطة وفق قوانين ثابتة ، يقف الانسان أيضا أمامها عاجزا لا حول له ، فلم يكن يستطيع بحال من الأحوال التأثير فيها، الا أنه حاول فهم قوانينها والافادة من هذه المعرفة ، وقد بلغت هذه النظرة التى تقول بحتمية المصير الانسانى ، ذروتها فى العصور الوسطى ثم ضعفت بعد ذلك ، ولكنها لم تندثر نهائيا .

ثانيا — النظريات الغريزية للحرب :

مع تطور العلوم البيولوجية والطبية خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين انتقل التفكير فى القوى السببية أو العلية التى تحدد سلوك الانسان ، من الأرواح والنجوم التى توجد خارج الانسان ، الى داخل الانسان نفسه ، وتؤكد وجهة النظر هذه ، أن الحرب تنتج عن طبيعة الانسان كما تنتج الزلازل والبراكين عن طبيعة الأرض ، وتقول هذه النظرية أن الانسان حيوان محارب ، وأنه ورث عن جدوده الأولين معداته

---

(١) May, Mark, A.: A Social Psychology of War and Peace, 1948, pp. 1-20.

من الغرائز مثل غرائز « الميل الى الصراع » و « القتال » ممتزجة بغرائز « السيطرة » و « التسلط » .

والواقع ، أن هذه الغرائز كانت تتفق والعيش فى الغابات والأدغال أكثر مما تتفق والحياة المتحضرة بمدنها وتنظيماتها السياسية ، وقد كانت هذه الغرائز مفيدة يوما ما ، ولكنها الآن ليست عديمة الأهمية فحسب ، ولكنها معوقة أيضا .

وقد وصل الاعتقاد فى الغرائز على أنها المحركات الأساسية للسلوك الانسانى الذروة فى بداية هذا القرن ، وأكدها تأكيدا قويا العالم النفسى « وليم مكدوجل » وقد طبع من كتابه « مقدمة فى علم النفس الاجتماعى » سبعة عشرة طبعة ، واستمر مرجعا لطلاب البحث مدة خمسة وعشرين عاما ، ولم يقتصر استخدامه على علماء النفس وانما استخدمه أيضا علماء الاجتماع بوجه عام ، وقد حاول « مكدوجل » أن يبين فى هذا الكتاب كيف تقوم الصور المتعددة للسلوك الاجتماعى على واحد أو أكثر من « الغرائز الأساسية » ويقول فى مقدمة هذا الكتاب الذى كتب خلال الحرب العالمية الأولى ان غريزة القتال « جعلت أوربا معسكرا مسلحا يضم اثنى عشر مليونا من الجنود ... واننا نرى الآن بمزيد من الوضوح كيف تحرك غريزة « الميل الى القتال » أمة بأسرها ... وربما كانت السيطرة على هذه الميول والغرائز ووقف الاندفاع نحو المنازعات الجماعية ، من أثقل الأعباء الملقاة على عاتق السياسيين المحدثين(١) » .

وينظر العلماء المحدثون فى شك وريبة الى الغرائز كمفسرة للسلوك الانسانى ، والقول أن الناس يحاربون لأن لديهم غرائز الميل الى القتال ، لا يصمد أمام التفكير العلمى ، تماما كالقول ان الناس يحاربون لأن أرواحا شريرة تسيطر عليهم . وليس هذا مجال استعراض « معركة الغرائز » التى احتدمت بين علماء النفس خلال الثلاثين عاما الماضية ، والتى انتصر فيها العلماء الذين عارضوا الغرائز كمحددات رئيسية للسلوك الانسانى . وتتلخص النظرية الحديثة فيما يأتى :

انه بينما يكون السلوك — بما فى ذلك الحركات الجماعية كالحرب — له أساس بيولوجى عريض ، الا أن العوامل التى تحدد نوع ما يحدث من أفعال فى مواقف معينة ، هى فى أغلبها نتاج التعلم والواقع الموضوعى الاجتماعى . وعلى هذا ، فان الحرب ليست أمرا محتوما لأن فى طبيعة

(1) McDougall, William : An Introduction to Social Psychology, London, 1915, pp. 280-281.

الانسان نزعة الى الحرب ، ولكنها نتيجة مباشرة لما يكتسبه الانسان ويتعلمه من العادات والاتجاهات والمعتقدات ، وسوف نعرض لهذه النظرية بالتفصيل فى تعقيبنا على النظريات الغريزية فى الحرب .

وقبل أن ندع نظرية الغرائز وتفسيراتها للحرب يجب أن نقول كلمة عن النظرية الخاصة بغريزتى الحياة والموت « لسيجموند فرويد » . فمنذ عدة سنوات سألت هيئة التعاون الثقافى فى عصبة الأمم « أينشتين » أن يختار بعض كبار المفكرين ويطرح عليهم السؤال « لماذا الحرب ؟ »(١) وكان « فرويد » أحد من وجه اليهم السؤال ، وكان نص السؤال هو « لماذا يسهل اشعال نيران الحرب ؟ هل هذا لأن لدى الانسان رغبة جامحة للكراهية والتدمير ؟ » وأجاب « فرويد » بأنه لا يوجد شك فى أن لدى الانسان مثل هذه الرغبة ، وهى — أى الرغبة فى الحرب — تكون لا شعورية عند أغلب الناس ، وقد يكون الانسان أمينا فى معارضته الشعورية للحرب ، ولكنه يخفى فى اللاشعور اعجابا بها ورغبة للمشاركة فيها ، وتذهب نظرية التحليل النفسى الى أن المعارضة الشعورية الشديدة لشىء غالبا ما تكون ستارا لرغبة لا شعورية فى هذا الشىء ، والقول بأن الجميع ينظرون الى الحرب كشىء بغيض ممقوت يثير فى ذهن المحلل النفسى كثيرا من الشك ، وقد يعنى ذلك أحيانا أنها أمر مرغوب فيه متطلع اليه لا شعوريا .

ولتفسير كثير من الحقائق المستخلصة من نتائج التحليل النفسى ، وخاصة تلك المتعلقة بالصراع بين الحرب والكراهية ، افترض « فرويد » وجود مصدرين متعارضين للطاقة الحيوية ، الأولى ، هى الطاقة التى تتيح ظهور حوافز لألوان من النشاط مثل الحب والصداقة والكرم والايثار ، والسلوك الخلاق البناء المتعاون ، وهى تتضمن الغرائز التقليدية المتعلقة بحفظ وبقاء النوع . والثانية ، هى الطاقة التى تتجه نحو الاتجاه المضاد للسلوك ، أى نحو العدوان والتخريب والعقاب وتثير حوافز الحقد والغيرة والحسد والقسوة والكراهية . وقد أطلق « فرويد » على الأولى اسم « غريزة الحياة » وعلى الثانية اسم « غريزة الموت » .

وبين الغريزتين — أو الحافزين : الحافز الى الحياة والحافز الى الموت — معركة دائمة وصراع مستمر يدور رحاه فى اللاشعور ، وغريزة الحياة مقبولة اجتماعيا ، ومن ثم فانها تجد متنفسا لها فى الحياة الشعورية ، أما غريزة الموت فانها غير مقبولة اجتماعيا ، ومن ثم فانها

(١) Einistein-Freud : Why War ? (International Institute of Intellectual Cooperation, 1933).

تكبت ، ويتصارع فى لا شعور كل فـرد شخصيتين : « دكتور جيكل » و « مستر هايد » ، ويختبىء داخل كل منا « مستر هايد » وهو الذى يدفعنا الى الحرب ، ويجعلنا سريعى الاستجابة لمطالبها .

ولا يمكن منح كل الثقة لنظرية التحليل النفسى من حيث تفسيرها للحرب ، ويمكن على أية حال أن نضيف هنـا كلمة أخرى ، فالمحللون النفسيون الذين كتبوا عن الحرب ، وان كانوا يجمعون على أن الدوافع الأساسية للحرب لا شعورية ، الا انهم يختلفون فى مصدر هذه الدوافع ، ويفترض « فرويد » أن هذه الدوافع تنتج عن الصراع بين نظامين فطريين من النشاط الحيوى، ويتبنى علماء آخرون مثل « جلوڤر T.R. Glover » و « براون W. Brown » و « بولبى Bowlby » وغيرهم ، وجهة النظر القائلة بأن الجانب العدوانى والتخريبى من الطبيعة الانسانية نتاج عملية التطبيع الاجتماعى ، وأن التكوين الطبيعى والبيولوجى الذى خلق منـه الانسان ، محايد فيما يتعلق بالحرب والسلام . والانسان بطبيعته أنانى يبحث عن اشباع حاجاته والعمل على بقائه . وتصـدم رغبات الفـرد الخاصة ، بالمجتمع الذى عليه أن يتعلم كيف يتطابق مع تقاليده وعاداته . وهكذا تكون عملية التنشئة والتطبيع الاجتماعى فى أى مجتمع هى عملية محبطة ، تثير ميولا ونزعات عدوانية ينبغى أن تكبت بدورها . وعن طريق كبت الحوافز والرغبات التى لا يسمح المجتمع باشباعها يصبح اللاشعور ممتلئا بالكراهية .

تعقيب على نظريات الغرائز :

ان طبيعة الانسان البيولوجية ليست خيرة ولا شريرة ، وليسـت عدوانية ولا خانعة ، وليست جانحة للحرب ولا جانحة للسلم ، وتتوقف تنمية الانسان لأى من هذه الاتجاهات ، على ما تفرضه عليه بيئته وثقافته من تعلم ، ومن الخطأ افتراض أن الانسان يستطيع تعلم الحرب بأيسر مما يستطيع تعلم السلم — كما أنه ليس صحيحا — كما يعتقد أحيانا — أن جهاز التعلم لدى الانسان يميل نحو الاتجاه الى اكتساب العادات السيئة، فهذا الاتجاه المتحيز يكون موجودا فى البيئة الاجتماعية للانسان . وان من وجدوا عن طريق خبرتهم ، أن الحياة أكثر رفقا والسعادة أكثر توافرا ، وأن مطالبهم وحاجاتهم تقضى بالحب أكثر مما تقضى بالعدوان ، هم أقدر الناس على الدعوة الى فض ما قد يطرأ من نزاع بالطرق السلمية . واذا لقى الفرد دائما على سلوكه المتعاون وما يوطده من صداقات مع الأفراد أو الجماعات ، جزاء أفضل مما يلاقيه على السلوك العدوانى والعلاقات العدوانية ، فان مثل هذا الفرد يكتسب عادات واتجاهات تعلى من شأن السلم ، ولكن كل هذا لا يكفى على أية حال لضمان وكفالة السلم .

ومن ناحية أخــرى ، اذا تشكلت بيئة الفــرد ونظمت بحيث يكون القتال هو السلوك الأكثر فاعلية وجدوى من الالتجاء الى السلم ، فان المرء يكتسب عادات واتجاهات عدوانية ، وان من يجد أنه يستطيع أن يكون أكثر سعادة وافضل اشباعا لمطالبه وحاجاته بسلوك طريق الحرب عن سلوك طريق السلم ، يكون أكثر اســتعدادا للحرب والقتــال بحكم الخبرة والممارسة والعادة . ويميل مثل هؤلاء الأفراد الى تسويغ الحرب وتعظيمها والاعــلاء من شــأنها فى نظمهم الاخلاقية وقيمهم العقائدية ، فالانسـان يعلى من شأن الطرق والوسائل التى كفلت له النجاح وأشبعت حاجاته ، وتتبلور قيمه وعقائده الاخلاقية حول هذه الطرق والوسائل ، وعلى هذا يمكن القول بأنه اذا كان الفرد أكثر ميلا الى العدوان ورغبة فى الحرب عن السلم ، فان ذلك لا يعزى الى فساد طبيعته ولا يرجع الى خطيئة فطرية ، وانما يعزى ببساطة الى أن نوع الحيــاة التى اضطر أن يحياها ، قد جعلته يدرك أنه يستطيع أن يحصل بالشجار واستخدام القوة على مالا يمكنه الحصول عليه باســتخدام أنواع السلوك الأخــرى المتوافقة . وسوف نحاول أن نبين كيف أن العــادات والدوافع اللازمة للسير فى طريق الحرب أو السلم ، هى عادات ودوافع مكتسبة نتيجة عمليات التنشئة الاجتماعية والتطبيع الاجتماعى .

وتتأثر معتقدات الفرد وآرائه وعاداته ، وخاصة اتجاهاته الانفعالية للحب والكراهية ، بما يكتسبه ويتعلمــه ممن يلتقى بهم ويصادقهم من أشخاص سيما والديه ومن يكبرونه سنا ، أكثر مما يكتسبها ويتعلمها من البيئة الطبيعية المحيطة به . وقد يكون صحيحا ــ كما يؤكد بعض علماء الاجتماع ــ أن العادات والأخــلاق والقيــم وغير ذلك من العناصر التى تتكون منها الثقافة ، تتحدد الى حد كبير على مر السنين والأعوام بالعوامل الطبيعية وفصول السنة وسقوط الأمطار وموارد الطعام وما شابه ذلك ، الا أن اهتمامنا لا ينصرف هنا على نشأة وتطور المجتمعات والثقافات ، وانما ينصرف اهتمامنا أكثر ما ينصرف الى تأثير هذه المجتمعات والثقافات على عمليــات التعــلم والتنشــئة الاجتماعية والتطبيع الاجتماعى ، أى الظروف التى تحدد الاتجاهات والمعتقدات الاجتماعية ، وخاصة تلكالتى تتعلق بالحركات الاجتماعية العدوانية وهذه الاتجاهات والقيم والمعتقدات نتاج الظروف الاجتماعية الى حد كبير ، رغم أن أصولها تكون قد تأثرت وتحددت بالعوامل الجغرافية والطبيعية .

وتعارض وجهة النظر هــذه ، الرأى التقليدى الذى يؤكد أهميــة العوامل البيولوجية والفطرية فيما يتعلق بالسلوك العدوانى عند الانسان، وان المشكلات البيئية تهيىء المثير الذى يستدعى الميول الكامنة الفطرية

القوية للمحافظة على الذات ، ويستند من يؤكدون هذا الرأى الى عدد من الحقائق البيولوجية الخاصة بالصراع من أجل البقاء ، والى العراك الدائم والصراع المستمر بين الحيوان ، والى الحقيقة الهامة التى تقول ان الانسان ذاته حيوان مقاتل ، فاذا وجد فى موقف مثير ملائم فانه يقاتل دائما ، ويقاتل جيدا دون تعلم كبير سابق ، بل قد يكون ذلك دون تعلم على الاطلاق .

ونحن لا ننكر ، أن أغلب سلوك الحيوان ، وأن بعض أنواع من سلوك الكبار الراشدين غير متعلمة ، ونحن نلاحظ حيوانات وأطفال صغار تعض وتخدش وتركل وتهاجم اذا استثيرت وذلك دون تعلم سابق لهذه الحركات والأفعال ، ولكن ذلك لا يدفعنا الى استخلاص أن الأفعال العدوانية لدى الناس ، غير متعلمة وغير مكتسبة من المجتمع .

ونجد فى النظرية القائلة بالأصل البيولوجى للحرب ، علاقة ارتباط عكسية بين الغريزة والتعلم ، ففى بداية سلم التطور نجد حيوانات لديها قدرة كبيرة على الاستجابات الغريزية غير المتعلمة تجاه البيئة التى تعيش فيها ، وقدرة ضئيلة على التعلم ، أما حيث يقف الانسان فى أعلى سلم التطور ، فاننا نجد لدينا قدرا ضئيلا من الانماط الفطرية من الاستجابات (كالافعال المنعكسة الشرطية) وقدرا كبيرا من الأنماط المتعلمة من الاستجابات وكذلك نجد لديه قدرة كبيرة على التعلم ، وتمتد فترة طفولة الانسان وقتا طويلا نسبيا ، يعتمد فيها على أبويه ، وفى هذه الفترة يتم قدر كبير من التعلم البالغ الأهمية ، ويبدو أن القاعدة العامة — مع وجود بعض الاستثناءات — هى أنه كلما ارتقينا فى سلم التطور كلما تناقص عدد الاستجابات الفطرية الثابتة ، وكلما ازدادت القدرة على التعلم مع ازدياد فترة الاعتماد على الغير . والحق أن قدرة الله كانت بالغة الحدب والعطف على الانسان ، اذ أنها بدلا من أن تمنحه معدات فطرية من العادات للدفاع والهجوم تناسب الحياة فى بيئة خاصة ، زودته باستعدادات وراثية ثمينة هذه الاستعدادات هى القدرة على تعلم أفضل الطرق للدفاع عن نفسه واشباع حاجاته أينما وجد وحيثما حل .

ولم تهتم المحاولات التقليدية لفهم السلوك العدوانى لدى الانسان فى ضوء السلوك الغريزى للحيوان ، الا بشق واحد من الشقين المتلازمين فى سلسلة التطور ، حقا توجد رابطة بين الانسان والحيوان ، ولكن هذه الرابطة لا ترجع فقط الى وجود غرائز مشتركة بين الانسان والحيوان ، ولكنها ترجع أيضا الى أن لدى الحيوان قدرة على التعلم يشترك فيها مع الانسان ، فاذا تشابه سلوك الانسان العدوانى مع سلوك الحيوانات الأدنى منه ، فاننا لا يمكن أن نجزم ما اذا كان هذا التشابه يرجع الى

وجود غرائز عامة أم هو نتاج خبرة مشتركة ؟ ونحن نعرف كحقيقة عامة، أن أغلب الثدييات يمكنها أن تتعلم أن تقاتل أو لا تقاتل فى ظروف مختلفة تماما . والاختلاف الأساسى بينها وبين الانسان هو فى الأشياء التى يمكن تعلمها والسرعة التى يتم بها هذا التعلم . فقدرة الانسان على التعلم أكبر كثيرا من قدرة أى حيوان آخر ، فليس غريبا اذن أن يكون قد سبقها لايجاد طرق يوقع بها العقاب على الآخرين عندما يتفق هذا مع أغراضه، وان الناس لا يتعلمون فقط متى يحسن أن يجنحوا الى الحرب ومتى يحسن ان يجنحوا الى السلم ؟ من الذى يقاتلونه ومن الذى يسالمونه ؟ كيف يقاتلون وكيف يتعايشون سلميا ؟ ولكن الناس يتعلمون أيضا من يكرهون ومتى يكرهون وكيف يكرهون ؟ ونستطيع أن نعثر على جذور الحرب العدوانية بدراسة ما يتعلمه الانسان ، وذلك بأكثر وأجدى مما نستطيع من دراسة ما يتعلمه الحيوان ، وان كنا لا ننكر بطبيعة الحال أننا نستطيع أن نعرف الكثير من المبادىء الأساسية للتعلم الانسانى عن طريق دراسة الظروف التى تتعلم فيها الأنواع المختلفة من الحيوانات أن تكون عدوانية كأفراد أو كجماعات .

بعد أن عقبنا على نظرية الغرائز وعلى الرأى القائل بالأصل البيولوجى لسلوك العدوان ، يحسن أن نعرض لرأى الأديان ، فهى تدعم وجهة النظر القائلة بتعلم هذا السلوك ، لأنها تحث الانسان على نبذ الحرب وتدعو الى السلم .

موقف المسيحية :

لقد عالجت المسيحية مشكلة السلم والحرب فى حياة السيد المسيح عليه السلام ، وحياة رسله وتلاميذه من بعده علاجا روحيا خلقيا ، فدعت الى الحب ، وزهدت فى المال والزينة ، وكل ما يؤدى الى اقتتال الناس وخصامهم . « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم ، لكى تكونوا ابناء أبيكم الذى فى السماوات ، فانه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الابرار والظالمين[١] » ، لم يكن السيد المسيح حين أمر اتباعه بهذا الا صانعا للسلام ، عاملا على مكافحة عوامل الحقد والبغضاء ، وهى من أكبر أسباب الحروب بين الأفراد والأمم .

ولكن السيد المسيح لم يكن ليقف عند الدعوة الى السلم ويقف موقف المهادنة أمام الحركات العدوانية ، وأمام قوى البغى التى لا تهنأ بالسلام

---

(١) انجيل متى : ٥ — ٤٤ ، ٤٥ .

والتى لا تعيش الا بشن الحروب والغارات ، فعلى هؤلاء أعلن السيد المسيح حربا لا هوادة فيها فهو يقول : « لا تظنوا انى جئت لألقى سلاما على الأرض ، ما جئت لألقى سلاما بل سيفا »(١) « جئت لألقى نارا على الأرض »(٢) و « من له كيس فليأخذه ، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا »(٣) .

هذه دعوة الى السلام كنظام دائم تعيش عليه البشرية وتحيا عليه الأمم والشعوب ، وانذار بالحرب لمن تسول له نفسه العدوان وشن الحروب والغارات .

موقف الاسلام :

يشتق الاسلام اسمه من السلام ، ومن أسماء الله فى القرآن « السلام » وتحية المسلمين لبعضهم « السلام عليكم ورحمة الله » ودار الجنة تسمى « دار السلام » ومن تتبع آيات القرآن وجد أن لفظ « السلم » وما اشتق منه ورد فيما يزيد على ١٣٣ آية ، بينما لم يرد لفظ « الحرب » فى القرآن كله الا فى ست آيات فقط (٤) .

ومن أجل هذه الغاية أكد الاسلام مبدأ الأخوة : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » (٥) ومبدأ الحب والتعاون وبذل الخير للناس جميعا : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » (٦) ومبدأ الصفح والتسامح : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، ان الله لا يحب الظالمين » (٧) .

والاسلام كذلك لا يقف عند دعوة السلم أو مهادنة حركات العدوان وشن الحروب والغارات ، فقد أمر الاسلام باستخدام الشدة وشن الحرب على المعتدين والظالمين والطغاة وتأمين السلام العالمى : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين

---

(١) انجيل متى : ١٠ — ٣٤ .
(٢) انجيل لوقا : ١٢ — ٤٩ .
(٣) انجيل لوقا : ٢٢ — ٣٦ .
(٤) الدكتور مصطفى السباعى : نظام السلم والحرب فى الاسلام ١٩٥٣ .
(٥) سورة النساء : ١ .
(٦) سورة المائدة : ٢ .
(٧) سورة الشورى : ٤٠ .

يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل **لنا من لدنك وليا** واجعل **لنا من لدنك نصيرا** » (١) .

وكذلك : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلمـوا ، وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغـير حق ، الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضـهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصـلوات ومسـاجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » (٢) .

فالحرب التى يعلنها الاسلام حرب فى سبيل الحق والحرية والعدالة. أما الحرب التى يعلنها أعداؤه فهى حرب طغيان وظلم وعدوان .

ثالثا ــ الحرب كوسيلة للتطور الاجتماعى :

ظهر كرد فعل « لنظريات الغرائز » التى تدعى أن جـذور الحـرب تستقر فى طبيعة الانسان الفطرية ، عدد كبير من « النظريات الاجتماعية » تذهب الى أن أسباب الحرب تكمن فيما يبذله الانسـان من جهـد لكى يصبح متمدينا ، وينظر أصحاب هذه النظريات الى المدنية على أنها نتاج للتطور الاجتماعى ، ويعتبرون الحرب عاملا هاما فى تطـور المجتمع من الصورة البدائية الى صورة أكثر مدنية وأشد تعقيدا .

وفى هذا الصدد نجد مبدأى « دارون » الأساسيين فى التطور وهما التنوع والانتخابات ، وكذلك مبدأه القائل بأن « البقاء للأصلح » ويرجع « دارون » التنوع أو التباين بين الأفراد الى الوراثة أساسـا ، ويرجع الانتخاب أو الانتقاء الى البيئة ، فهو يتوقف على قدرة الفرد على التوافق مع بيئته ، وتعتمد سرعة التطور أوليا على اتساع قاعدة التنوع وصعوبة وقسوة الانتخاب . وتقول هذه النظرية ان الحرب قد ساعدت على تطور المجتمع بما اشتملت عليه من تنوع وانتخاب ، فقد ساعدت على التنوع باظهار قدرات فطرية للتوافق واسـتثارة الاختراعات وانمـاء المواهب الفردية ، واثارة التنافس بين الجماعات المتحاربة . كما أن أحد نتائج الحرب انعدام التوازن والتساوى بين الأفـراد وأيضـا بين الجماعات فيتبوأ المنتصرون القمة ويستقر المهزومون فى القاع ويحوق بهم الويل والدمار (٣) .

---

(١) سورة النساء : ٧٥ .

(٢) سورة الحج : ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) Sumner and Keller : The Science of Society. New York, 1927, p. 1, 401.

ويرتبط مبدأ « البقاء للأصلح » بالحرب أكثر مما يرتبط مبدأيه السابقين ، ففى الصراع الأبدى من أجل البقاء بين القبائل والأمم ، بل وبين النبات والحيوان ، يتغلب القــوى الذكى على الضـــعيف الغبى ، وتستمر وتحيا أفضل القبائل والعشائر أو المدن أو الأمم تكيفا وتوافقا مع البيئة الطبيعية والاجتماعية ، أى هؤلاء الذين اخترعوا أكثر الأسلحة فاعلية وتدميرا وأفضل التنظيمات الاجتماعية كفاءة من أجل أن يسودوا جيرانهم أو أعدائهم .

وقد أثيرت عدة اعتراضات على هذه النظرية ، أول هذه الاعتراضات أنها قامت على التشبيه ، والتشبيهات ليست مأمونة الجانب دائمـــا . والاعتراض الثانى ، أنها تفترض ان التقدم الاجتماعى يتم أساسا بدافع العدوان والتدمير ، حين أننا نعرف أن أعظم الأعمال الانسانية كانت وليدة التعاون وثمرة النظرة البناءة . وليس من المهم أن نسجل هنا جميـــع الاعتراضات التى قامت ضد هذه النظرية ، ولكن يكفى أن نشير الى أن دور الحرب فى التطور الاجتماعى ليس واضـــحا اليوم كما كان يبدو فى المـــاضى .

رابعا ــ الحرب كمنشط اجتماعى ضرورى :

ثمة نظرية اجتماعية أخرى تقوم على التشبيه أيضا ، وهى تستعير أساسها الذى تصدر عنه من ميدان الطب ، وتذهب هذه النظرية التى سوف نطلق عليها « نظرية المنشط الاجتماعى » الى أن الحرب ضرورية للنمو الاجتماعى ضرورة الفيتامينات للنمو الجسمى والصحة الجسمية ، وان الجماعات السياسية كالقبيلة أو الدولة أو الأمة لا تستقر أبدا على حال واحد ، فهى دائمة التغير اما نحو الازدهار واما نحو الفناء . ويحتاج الجسم لنموه الى بعض الفيتامينات والهرمونات والأملاح والمعادن وغيرها من المواد الكيميائية ، ولكن هذه « المواد الحيوية » تكون سامة اذا أخذت بجرعات كبيرة ، وكذلك الحرب هى سم ضرورى للنمو الاجتماعى ، وهى لا تؤثر فى الأمة كمنشط فحسب بل كمقو أيضا ، فاذا حققت هدفها فانها تضفى على الدولة القوة والهيبة وتعمل على استمرار نمـــوها ، وبغـــير الحرب تظهر فى المجتمع أمراض اجتماعية تشـــبه ما يعترى الجسم من أمراض نتيجة نقص بعض الفيتامينات مثل البلاجرا ولين العظام .

وقد اعتنق بعض كبار الكتاب هذه النظرية العامة للأسباب الرئيسية للحرب (ولو أن ذلك لم يكن بهـــذه الصـــورة المتطرفة) نذكر من بينهم الفيلســـوف « برتراند رســـل » وعالم النفس « وليم جيمس » وعالمى الاجتماع « سيمنر » و « كيـــلر » وقد أظهـــر وليم جيمس فى مقـــاله "The Moral Equivalent of War" كيف تمتزج الحرب دائما بالوطنية

وبالروحانية ، وكيف يقدمها دعاتها فى أطار من حب الدولة والدفاع عن المبادىء والمثل العليا ، وهكذا يضفى على الحـرب نوعا من القداسـة ، فيقول « انها خير مطلق تعود فائدته على من يشترك فيها ، وهى تمثل الطبيعة الانسانية فى ذروة حيويتها ونشاطها » .

ويتأثر « جيمس » بأفكار « هومر لى Homer Lea الذى لا يكتفى بالقول بأهمية الحرب ولكنه يؤكد أنها ضرورة اجتماعية « ان الأمم كالنبات والحيوان وسائر الكائنات الحية اما أن تمضى فى طريق نموها أو تفنى ، ولا يمكنها أن تبقى فى حالة ثبات ، وقد أظهـر التاريخ أن نمـو القبائل والأمم والمدنيات وازدهارها ، كان يرتبط دائما بزيادة القوة الحربيـة وسياسة التوسع والانتصارات ، كما أن الانهيار والأفول غالبا ما يرتبط بسياسة المهادنة والمسالمة ، اذ فيها يحيا الناس حياة مرفهة ويعتادون الدعة والراحة ويشبعون كل ما يعن لهم من رغبات »(١) .

ويقول « وليم جيمس » فى نفس المرجع السابق :

« لا يلقى رجال الحرب بالا الى ما يصحب الحرب من وحشية ولا الى ما تتكبده من نفقات ، ويرون أن ذلك ليس كل شىء ، فالحرب برغم هذا أمر يستوجب الاهتمام ، فاذا أخذنا فى اعتبارنا الطبيعة الانسانية ككل ، فان الحرب أفضل ضمان وحماية ضد الجانب الجبان والضعيف منها ، ولا يمكن للجنس البشرى أن يتبنى سياسة سلام » (٢) .

ويتقبل « جيمس » وجهات نظر العسكريين كمبـدأ عام ، وهى أن الحرب تحقق شيئا لا يكون موجودا ابان السلم ، هذا الشىء هو الذى يجعل الأمم قوية صلبة ، ويحافظ على نموها وازدهارها .

« ان العسكرية هى خير حافظ لأفكارنا ومثلنا العليا عن الشجاعة ، ولا احترام أو تقدير لحياة بشرية تخلو من شجاعة ، وبدون الانتصارات التى أحرزها الأقوياء والمعارك التى خاضها المحاربون لكان التاريخ فقيرا مجدبا » (٣) .

ولا يتقبل « وليم جيمس » وجهـة نظر العسـكريين الذين يقولون

(١) James, William: The Moral Equivalent of War, London, 1910, pp. 8-9.

(٢) المرجع السابق : ص ٩ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٢ .

ان الحرب هى العلاج الوحيد والصحيح الذى يفرز الهرمون أو الفيتامين او المنشط الناقص ، ولكنه يرى أنه ينبغى أن يكون هناك حل آخر يؤدى نفس الغرض وفى نفس الوقت يجنب البشرية أهوال الحرب ، هذا الحل هو تعبئة الشباب فى كل أمة لمواجهة القوى الطبيعية التى لا بد للانسان أن يتغلب عليها من أجل رفع مستواه واحساسه بالسعادة ، فهناك السدود التى يجب أن تبنى والفيضانات التى لا بد من التغلب عليها ، والغابات التى تحتاج لأن تمهد وتعاد زراعتها ، وهناك الطرق التى يجب ان تشق والمبانى التى تشيد والقناطر التى تقام لصالح الجميع ولخير الجميع . فالدولة يجب أن تجند جميع الشباب فى سن معينة ليمضوا عاما أو أكثر فى مثل هذا العمل ، ومن اليسير أن يحاط هذا العمل بهالة من الفخر والتمجيد ، والتقدير بحيث يكون بديلا أخلاقيا للحرب ، ويعترف « وليم جيمس » بحق أن هذه تعتبر مثالية أخلاقية صعبة التحقيق .

والاثارة هى أحد الأشياء الأخرى التى توجدها الحرب ، ففى المجتمع المستقر الجيد التنظيم تسير الحياة اليومية لأغلب الناس على وتيرة واحدة متبلدة يحكمها التوقيت المنتظم ، ورغم أن ما يقوم به الفرد من عمل يتيح له تنوعا يشد اهتمامه به ، الا أن تكرار نفس العمل ونفس التوقيت الزمنى يبعث على الضيق والملل والتعب ، وقد يبعث هذا الانتظام والاستمرار على الأمن والطمأنينة ، الا أنه لا يشبع حب الاثارة والمخاطرة ، الأمر الذى يود أغلب الناس أن يستمتعوا به ، وتواجه هذه الحاجة ابان السلم بعديد من أوجه النشاط مثل سباق السيارات وسباق الخيل ومصارعة الثيران وغير ذلك من الألعاب التى تحتوى بعض الخطورة أو تمثل صورة من صور القتال ، وتوجد أيضا مجالات أخرى تمثل مصدرا آخر من مصادر اشباع هذه الحاجة مثل القصص والروايات البوليسية بما تحتويه من مغامرات واعترافات وجرائم ومطاردات .

ومهما يمكن أن يقال عن الحرب ، فكل هذه الأقوال تتضمن الاثارة لكل من يشهدها أو يراقبها . ويرى « جراهام سومنر » أن المجتمع يحتاج الى نوع من الاثارة ، وتشبع هذه الاثارة فى العصر الحديث بالتنافس الاقتصادى وتحقيق الرفاهية ، وفى عصور أخرى كانت تشبع وتدعم بالحرب (١) .

---

(١) Davie, Maurice : Sumner Today : Selected Essays by William Graham : Sumner "War", New Haven, Yale University Press, 1940, p. 181.

ولا تستنهض الحرب الاختراعات أو تظهر القادة أو تبعد الملل أو تبين صفات الجلد والاحتمال فحسب ، بل انها أيضا تربط وتشد أفراد الأمة بعضهم الى بعض . ويتضح ذلك بالتغير الذى طرأ على اتجاهات الناس بعد اندلاع نيران الحرب على الجبهة المصرية والجبهة السورية يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فقد اتحدت الأمة العربية وتماسكت ووقفت كالبنيان المرصوص لمواجهة اسرائيل وحلفائها من الامبرياليين . ولا يستطيع شيء أن يلم شعث الأمة ويوحد صفوفها مثل حدوث هجوم من عدو ، فحينئذ تنبذ الخلافات ويقف كل فرد بجوار الآخر داخل نطاق الأمة كلها ، وفى هذا الصدد نورد فقرة من مقال الدكتور زكى نجيب محمود (١) :

« اننا نرى الآن أول ما نرى ، أمة تتحقق وحدتها بفعل عمل موحد مشترك ، ولقد قالها الامام ابن تيمية منذ زمن بعيد ، حين قال : ان فكرة « الأمة » لا تتحقق لمجموعة من الناس الا اذا اشتركوا فى « فعل » واحد ، ان فكرة الأمة لا تتحقق عند ابن تيمية ، لمجرد أن يعيش أفراد المجموعة على رقعة جغرافية واحدة ، ولأنهم يشتركون فى تاريخ واحد ، ولا لأنهم يتكلمون لغة واحدة ، بل تتحقق فكرة الأمة فى حالة واحدة وبشرط واحد، هو أن تلتقى فاعليتهم فى كل واحد يستهدف هدفا واحدا ، وذلك لأنه بالفعل المشترك يجاوز كل فرد حدود نفسه لينفتح على الآخرين الذين يشاركونه فى اداء ذلك الفعل ، ان التجاور المكانى وحده لا يكفى فى ايجاد الرابطة الحيوية العضوية التى تجعل من الأمة أمة واحدة » .

ولا شك فى تعقيد العوامل التى تعمل على استبعاد العدوان داخل الجماعة وزيادة الشعور بالانتماء ، ولكننا نستطيع أن نميز بوضوح عاملا او اثنين ، مثل القلق الشديد الذى يستبد بالناس وعدم احساسهم بالأمن كأفراد منفصلين ، وأنه اذا أصاب جزءا من الأمة خطر أو حاق به مكروه فانه يصيبهم أيضا ، وهكذا تعلموا أن أفضل طرق مواجهة خطر عام هى تنظيم أنفسهم فى جبهة دفاعية واحدة .

خامسا ــ الحرب كوسيلة لاعادة التوازن الاجتماعى :

وهناك نظرية أخرى عن الحرب تقوم على تشبيه بيولوجى آخر ، والفكرة الرئيسية التى تقوم عليها هى مبدأ التوازن الحيوى ، فالجسم الصحيح السليم هو الذى تكون فيه الأعضاء والاجهزة والوظائف فى حالة توازن ، فمثلا أظهرت البحوث الطبية الحديثة أن غدد الجسم تعمل

---

(١) الدكتور زكى نجيب محمود : جريدة الاهرام ١٢ أكتوبر ١٩٧٣ .

معا لتحافظ على حالة كيميائية تساعد على بقاء الأعضـاء والوظائف فى حالة توازن (١).

ولا تقتصر فكرة التوازن الحيوى على العلوم البيولوجية فقط ، وانما نجدها أيضا فى علوم الفلك ، فتسير الأجـرام السماوية المتعددة طبقـا لنظم متضادة من الجاذبية وقوة الدفع ، فتدور الكواكب فى أفلاكها دون أن تصطدم ببعضها .

وتطبق فكرة التوازن الفسيولوجى والفلكى هذه على الدول والأمم ، فالحرب تحدث نتيجة اختلال توازن القـوى الاجتماعية والاقتصـادية والسياسية بين الدول . وتؤكد هذه النظرية أنه كلما كانت القوى الحربية لدول العالم فى حالة توازن بحيث لا تجرؤ دولة على مهاجمة الأخرى ، انتفى احتمال وقوع الحرب ، ولـكن اذا مال ميزان القـوى الحربيـة والاقتصادية لصالح احدى الدول ، فان الفرص تكون مهيـأة لنشـوب الحرب . والتوازن بين الدول لا يكون ثابتا دائما كالتوازن بين الكواكب والأجرام السـماوية ، وانمـا هو دائم التغير والاختلاف ، والمباحثات والوسائل الدبلوماسية احدى وسائل المحافظة على العلاقات بين الدول فى حالة توازن (٢) ولكن عندما تفشل هذه الطرق تصبح الحرب عندئذ أكثر الطرق فاعلية لاستعادة التوازن الدولى .

سادسا ــ الحرب كنتيجة لسياسة « حافة الهاوية » :

تحتوى مختلف النظريات السابقة على عنصر واحد عام هو « القوى» التى تكون بعيدة عن سيطرة الانسان بدرجة قلت أو زادت ، هذه القوى قد تكون كونية أو بيولوجية أو اجتماعية ، ولـكن أيا كان مصدر هـذه القوى أو طبيعتها فانها تعتبر الأسباب الكامنة النهائية وراء الحرب .

وهناك نظرية أقل غموضا لا ترى أن الحرب تنتج عن الأرواح الشريرة أو القوى الكونية أو غرائز الموت الدفينة أو الحاجة الى مقويات اجتماعية أو اختلال فى توازن القوى الاجتماعية ، ولكنها ترى أن السـبب يكمن ببساطة فى القادة والساسة الذين بيدهم مقاليد السلطة وتتمركز عندهم القوة ، وتذهب هـذه النظرية الى أن التجمعات الكبيرة من النـاس فى

---

(١) Cannon, W.B. : The wisdom of the body, New York, 1932.

(٢) Wright, Quincy : The Causes of War and the Condition of Peace, New York, 1935, pp. 105-107.

التنظيمات السياسية الحديثة يخضعون الى حد كبير لتأثير الدعاية ، ومن اليسير ـ اذا افترضنا قوة نشر هـذه الدعاية وجاذبية عرضها ـ اقناعهم بتشجيع وجهة نظر معينة ، ومع أن القادة الذين يسمون أحيانا « الصفوة » يمثلون عادة جزءا صغيرا من المجموع الكلى للسكان ، الا أنه يكون لهم السيطرة التامة على الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن بينها بطبيعة الحال وسائل الاعلام والمؤسسات التربوية ، ومن هنا يستطيع القادة تشكيل الرأى العام ، واذكاء روح الحرب عندما تتلاءم مع أغراضهم .

وقد عرض « مالينوفسكى » لوجهة النظر القائلة بأنه لفهم الحرب الحديثة لا بد من التفرقة بين المنظمات السياسية التى تسمى « الدول » وبين المنظمات الثقافية التى تسمى « القبائل » و « والأمم » ، وعندما ينتظم جميع الأفراد الذين يشتركون فى ثقافة واحدة فى وحدة سياسية واحدة ، فان الدولة والأمة يتطابقان تطابقا تاما ، ولكن الذى يحدث عادة ـ حتى فى المجتمعات البدائية ـ أن من يشتركون فى ثقافة واحدة ينتشرون فى وحدات سياسية متعددة ، وقد يحدث أيضا أن تضم وحدة سياسية واحدة أفرادا ذوى ثقافات مختلفة ، ونجد فى العصور الحديثة أفرادا من ثقافة واحدة وأصل قومى واحد ينتشرون فى عدة دول مختلفة ، كالألمان والبولنديين والفرنسيين والايطاليين ، ومن ناحيـة أخرى تضم بعض البلاد أفرادا يختلفون ثقافة كسويسرا مثلا اذ تضم أربعة مجموعات ثقافية واضحة الاختلاف ، ولهذا نرى القوميات تميل الى أن تضم جميع الأفراد من نفس الثقافة فى دولة واحدة ، وقد كانت القومية الألمانية قبل الحرب العالمية الثانية تهدف الى ضم جميع الألمان فى أنحاء العالم تحت السيادة السياسية لألمـانيا .

وفى استقصاء أسباب الحروب الحديثة يرى « مالينوفسكى » بأن هذه التفرقة بين الدولة والأمة ينبغى أن توضع فى الاعتبـار ، فالحرب الحديثة بين الدول أو الحروب الداخلية بين الأمة الواحـدة ترجع الى الصراع من أجل السيطرة السياسية ، وان اختلفت الدوافع التى تكمن وراء هذه الرغبة فى السيطرة السياسية ، وفى كثير من الحالات نجـد الدافع الاقتصادى من أهمها وأبرزها ، وأيضا قد يكون السبب تدعيم القوة السياسية بالاحتلال والسيطرة الكاملة من منطقة ثقافيـة معينة لمنطقة ثقافية أخرى بالقوة (١) .

---

(1) Malinowski, B. : "An Anthropological Analysis of War," Amer. J. Sociol., 1941, 66, 539.

ويرى « مالينوفسكى » أن الحروب التى تحدث بين الناس ترجع الى وجودهم وخضوعهم لدول يصارع وينافس بعضها بعضا ، ولا يمكن أن ترجع مطلقا لدوافع غير شعورية للتدمير أو الى أن الناس كالحيوانات تستحوذ عليهم شهوة القوة ، فالحكومات هى المسئولة عن الحروب ، وتلعب الاختراعات والاكتشافات العلمية فى هذه الحروب دورا كبيرا ، هذه الاختراعات والاكتشافات التى أبدعها الانسان لخيره ولمصلحته . ويشايع الناس هذه الحروب ويؤيدونها لأسباب فى بعضها الأثرة وفى بعضها الايثار . ولكن الحقيقة الأساسية هى أن كل فرد جزء من التنظيم السياسى لحكومته ،وقد تعلم وتدرب على التفاعل وظيفيا مع سائر أعضاء هذا التنظيم ، فاذا ما اتجهت الدولة نحو الحرب فانها تجرفه فى تيارها أراد ذلك أو لم يرد .

سابعا ــ الحرب كنتيجة للتنافس الاقتصادى والسياسى :

تؤكد وجهة النظر هذه ، أن كثيرا ما يكون الدافع الأساسى للحرب اقتصادى فى جوهره ، ويتضح ذلك فيما يفيده وتغنمه الدول القوية من الحرب ، وهذه الدول قد تكون منتجة للمعدات الحربية ، أو أن لها مصالح وبيوت مالية منتشرة فى أرجاء العالم ، أو تسعى لفتح أسواق تجارية لفائض صناعتها أو زراعتها ، وأحيانا قد تندلع الحرب لأن للساسة الدبلوماسيين فيها مآرب مختلفة كمنفعة ذاتية أو مكانة تاريخية ، وقد تندلع نيران الحرب لأن الطبقة العسكرية تسعى نحو مزيد من السلطة والقوة ، أو لأن الطبقة العليا تحاول جاهدة تأكيد ذاتها ، والحرب العدوانية ــ كما تعرف جيدا ــ لا يمكن أن تحدث أيا كانت الدوافع ، الا اذا رغب فيها القادة الذين بيدهم مقاليد الأمور .

وقد اهتم المفكرون الاجتماعيون بمعرفة الأسباب التى تجعل الناس المستنيرين ينقادون الى الحرب ضد رغبتهم ، فنحن نعرف تماما ان شعوب أوروبا ــ بما فى ذلك الشعب الألمانى نفسه ــ لم تكن تريد الحرب، والواقع أن عددا كبيرا من الناس قد أيدوا « هتلر » لأنهم آمنوا أنه يستطيع بالوسائل السلمية أن يحقق لهم رغباتهم وآمالهم ، وهكذا نصبوه قائدا وزعيما ، وبعد أن أصبحوا تحت قيادته وزعامته لم يقدروا على أن يقفوا فى وجه أطماعه وحروبه .

والواقع أن أغلب الحروب الحديثة قد سبقتها « مفاوضات » بين الساسة فى الدول المتصارعة ، يخضع سلوك وتصرفات هؤلاء الساسة ابان الازمات الدولية ، الى عديد من الدوافع والظروف التى يصعب تفسيرها سيكلوجيا ، فيتأثر بعضهم بضغط الرأى العام ، ويتأثر بعضهم

بالطموح الشخصى ، كما أن بعضهم يحاول التشبث بالاتفاقيات الدولية، ولكن أيا كانت هذه الدوافع فمن العدل أن نعترف ان بعض الجهـــود المخلصة تبذل دائما لتجنب ويلات الحرب ، الا انه اذا تأزمت الامور بدرجة كبيرة فلا سبيل الى حل سلمى ، ولكن نستطيع القول بأن توجد عديد من الطرق السلمية يمكن الالتجاء اليها قبل ان تتأزم الامور ، لتجنب الصدام بين الدول . ومن الناحية النظرية ، يمكن حل جميع المنازعات ومنع جميع الحروب عن طريق المنظمات الدولية التى تحول دون تطور الازمات ، ولكن الانسان فشل حتى فى هذا المجال .

ثامنا : الحرب كوسيلة لحسم النزاع :

كيف يمكن أن يحل الصراع بين الدول أو مجموعة من الدول ؟ من الواضح أن الصور البسيطة من الصراع يمكن أن تحل سلميا بالخضوع لمبادىء القانون الدولى ، وبالطرق الدبلوماسية أو بتنازل احدى الدولتين من أجل اقرار السلام ، ولكن قد يأتى الوقت الذى تصل فيه العلاقات الى حالة شديدة من التوتر ، ويفشل كل حل سلمى ، ولا يتبقى سوى حل واحد هو الحرب . وقد تأخذ الحرب عدة صور ، فقد تكون مثلا حربا اقتصادية ، أو حربا نفسية ، ولكن غالبا ما يتبع ذلك ، الحرب المدمرة المخربة ، وتكون هذه الحرب عادة — ولكن ليس دائما — هى الحل الوحيد الممكن للنزاع المستمر وآخر سهم فى جعبة المتنازعين .

ويعلق « سومنر وكيلر » على هذه النقطة بالقول « ينبغى أن يكون واضحا تماما أن الرجل البدائى لم يكن منحطا أو عنيدا أو أحمقا أو شريرا لالتجائه دائما الى الحرب ، ولكنه لم يكن يرى أفضل منها بعد أن يستنفد كل وسائله الاخرى للوصول الى حل سلمى ، وهو فى هذا لا يختلف عنا عندما نستنفد جميع جهودنا ووسائلنا الاخرى ، غاية مافى الامر ان وسائله الاخرى كانت أقل عددا وتنوعا من وسائلنا ، فلم تكن القائمة التى تحتوى على الحلول تشتمل الا على فقرة واحدة ، ولم يكن يفكر فى وحشية هـــذه الطريقة لفض المنازعات ، ولم يكن يتشكك فى فاعليتها ، فكان يوقن دائما انه سوف يحصل عن طريقها على ما يريد ، حتى اذا تحقق فيما بعد من انها لم تحقق له مآربه » (١) .

ويلجأ الناس للحرب لاعتقادهم انها اكثر الطرق فاعلية للحصول على اغراضهم ، فالحرب هى احدى الطرق التى تستطيع بها قبيلة أو دولة أن تحقق حاجاتها مثل استرداد أرضها والدفاع عن حقوقها أو أن تحقق مطامحها فى الطعام أو الارض أو الصيد او الشهرة ، وكلما حققت الحرب نجاحا فى تحقيق هذه الاغراض ، فانها تتصـــدر قائمة الحلول الممكنة ، اما اذا لم تلق نجاحا فانها ستهبط الى ذيل القائمة .

(١) Sumner and Keller : The Science of Society, p. 407.

الفصل الثاني

الصهيونية كحركة اجتماعية عدوانية
الحركات الاجتماعية العدوانية

لكى نفهم النزعات الاجتماعية العدوانية لمجتمع معين فمن الضرورى أن نعرف منذ البداية نوعية الافراد الذين يشكلون هذا المجتمع ، وخاصة فيما يتعلق بتكوين شخصياتهم وتنمية اتجاهات مثل الكراهية والاستعلاء والقتال ، وبالاضافة الى ذلك ينبغى أن نتعرف أيضا على ظروف البيئة الطبيعية مثل السطح والمناخ والثروات الطبيعيـــة ، وكذلك الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية وغيرها ، وكذلك العلاقات المتبادلة بين الناس بعضهم بعضا ، وبين الانسان وكل هذه الظروف . والواقع ، ان العوامل والظروف التى ينبغى التعرف عليها ودراستها عند محاولة التعرف على الاسباب التى تجعل دولة معينة عدوانية فى فترة أو فترات معينة من تاريخها ، هى من الكثرة والتعدد والتعقيد حتى ان الباحث ليقف أمامها حائرا . ومع ذلك يمكن القول بأنه توجد ظروف أو عوامل معينة يؤدى وجود بعضها أو غيابه الى اختلافات فى الاتجاهات العدوانية فى المجتمعات أو الدول ، فما هى هذه الظروف أو العوامل ، وأيها أكثر ارتباطا واتصالا بالحركات الاجتماعية العدوانية ؟

اسباب النزعات الاجتماعية العدوانية :

نجد فى البحوث الكثيرة التى أجريت على العدوان القومى وجهات نظر عديدة متباينة تتعلق بالظروف والعوامل والاسباب التى تجعل قبيلة أو دولة أو أمة معينة تهاجم قبيلة أو دولة أو أمة أخرى . ويمكن تصنيف هذه الظروف والعوامل والاسباب الى ظروف وعوامل وأسباب جغرافية وفسيولوجية واقتصادية واجتماعية وسياسية ودينية .

والظروف الجغرافية أو الطبيعية مثل الموقع والسطح والمناخ وغيرها تؤثر على نشاط الناس واتجاهاتهم وتفاعلهم الاجتماعى ، فنجد على سبيل المثال ، أن الناس الذين يعيشون فى المناطق المعتدلة أكثر نشاطا ومن ثم أكثر عدوانا من الناس الذين يعيشون فى مناطق شديدة البرودة أو شديدة الحرارة . وكذلك لوحظ أن القبائل التى تعيش فى الجبال أو فى الصحراء أو فى غيرها من الاماكن التى يندر فيها الطعام وتقسو فيها

الطبيعة ، أكثر عرضة لان يكونوا عدوانيين ، اذا قورنوا بالقبائل التى تعيش فى بيئات يتوفر فيها الغذاء وتعتدل فيها الطبيعة وتقل قسوة الصراع من أجل البقاء .

وتتمثل الظروف الفسيولوجية فى الدوافع الجسمية أو الاولية التى تحرك سلوك الانسان ، فعلى سبيل المثال قال « تروتر Trotter أنه توجد ثلاثة أنواع من هذه الدوافع الفسيولوجية يتضح النوع الاول منها فى الذئاب التى تنطلق فى قطعان للافتراس والسلب والنهب ويتضح النوع الثانى منها فى الماشية التى تتجمع من اجل الاغراض الدفاعية . أما النوع الثالث منها فنجده فى النحل الذى يتجمع فى خلايا لتحقيق منفعة عامة عن طريق تقسيم العمل . هذه الانواع الثلاثة من الدوافع الفسيولوجية يمكن ان نتبينها فى عالم الانسان كما نتبينها فى عالم الحيوان ، ويقول « تروتر » اننا نجد فى كل مجتمع تقريبا أفرادا عدوانيين جفاة غلاظ قساة بل متوحشين ، ويمكن ان نرى ذلك بوضوح فى الصهاينة الذين كانوا وبالا على كل مجتمع يحلون فيه قديما وحديثا، يقول الدكتور جوستاف لوبون : « وبقى بنو اسرائيل ، حتى فى عهد ملوكهم ، بدويين افاقين مفاجئين مغيرين سفاكين مندفعين فى الخصام الوحشى » (١) .

وتشمل الظروف الاقتصادية المؤدية الى ظهور الحركات الاجتماعية العدوانية عوامل مثل علاقة موارد الطعام بحجم السكان ، والحاجة الى المواد الخام ومصادر الطاقة ، والحاجة الى التوسع والازدهار ، والحاجة الى الايدى العاملة الاكثر والارخص ، والبحث عن أسواق لتوزيع المنتجات .

وتنحو الحركات العدوانية الى اخذ ما ليس من حقها ، فتهاجم الدول التى تفتقر الى الطاقة والاسواق الدول التى لديها هذه المقومات وبذلك ظهرت الحركات الاستعمارية العدوانية .

ويوجد عامل آخر يساعد على العدوان ، هو امتلاك أسلحة ومعدات الحرب التى يمكن استخدامها فى المخاطرة باشعال نيران الحرب ، ذلك ان ملكية هذه الاسلحة يغرى باستعمالها وتصبح هذه الاسلحة مصادر تهديد لجيرانها . والواقع ان ما يغرى اسرائيل بالعدوان على جيرانها من البلاد العربية هو تكدس الاسلحة فيها ، وتشجيع امريكا لها بامدادها

---

(١) الدكتور جوستاف لوبون : اليهود فى تاريخ الحضارات الاولى . ترجمة عادل زعيتر ١٩٥٠ ص ٣٠ .

بكل ما يلزمها من سلاح ، ويوم أن تدرك المؤسسة العسكرية الاسرائيلية أن العرب يتفوقون عليها عدة وعتادا فسوف تكف عن عدوانها .

ويؤدى بنا ذلك الى العوامل السياسية التى تؤدى الى ظهورالحركات الاجتماعية العدوانية والتى تتمثل فى القيادة العدوانية والحكومات التى تدعمها القوى العسكرية وتجار الاسلحة وأجهزة المخابرات والمؤامرات الدولية .

ويبرز من بين العوامل الاجتماعية للعدوان المحافظـــة على الهيبة والمكانة ، وقد أبانت الدراسات التى أجريت على التنافس بين الافراد والجماعات أن التنافس يشتد على امرين هما المكانة والملكية ، وبالنسبة لاغلب الدول تكون مكانتها وهيبتها بالنسبة لمجموعة الدول ذا أهميـة قصوى ، ويحب كل مواطن أن تكون دولته أقوى الدول . وغالبا مايكون التنافس من أجل الملكية صادرا عن الرغبة فى الحصول على المكانة التى تؤهلها هذه الممتلكات أكثر من السعىوراء اشباع الحاجات الفسيولوجية التى تحققها هذه الممتلكات . فعندما بدأت أملاك بريطانيا العظمى تتقلص وبدأت مستعمراتها تنسلخ عنها مستعمرة بعد أخرى ، لم تصبح هـذه الدولة يطلق عليها هذا اللقب بعد ، وبدأنا الآن نتكلم عن الدولتين الاعظم ونقصد أمريكا وروسيا . ومن أصعب الامور وأشدها على دولة أنتكون متربعة على القمة بالنسبة للدول ، ثم تجد نفسها قد انحدرت بعد ذلك الى المرتبة الثانية أو الثالثة مثل انجلترا .

وهناك مجموعة أخرى من العوامل التى تنحو الى تشجيعالعدوان وتتمثل فى العوامل الدينية والاخلاقية والايديولوجية . فكل الحركات الاجتماعية العدوانية تدعى انها تقوم لتحقيق رسالة معينة كالحـــرب الصليبية مثلا . وكذلك نجد أن الاستعمار قد ارتبط بحركة التبشير بالمسيحية فى أفريقيا . وتسيطر هذه الايديولوجيات على ميادين مثل التربية والفنوالادب . وليس من الضرورى بطبيعة الحال ، أن تكون كل دولة صاحبة ايديولوجية عدوانية ، ولكن الدولة العدوانية هى التى تسيطر عليها ايديولوجية تهدف الى التوسع والعدوان وأن شعبها فوق الشعوب أو أنهم شعب الله المختار .

وفى الكتب التى عرضت للحروب وأسبابها سواء كانت الحروب الماضية أو المعاصرة نجد أنها كانت تمزج بين العوامل المختلفة السابقة ، أو انها كانت تلح بالاهمية على عامل واحد منها مدعية انه العامل الحاسم والواقع أن الامر يتطلب اهتماما خاصا من أساتذة التاريخ والقيـــام بدراسة علمية بهذا الصدد ، فنختار مثلا الظروف التى كان يتكرر فيها

العدوان ، أو التى كانت الحروب فى ظلها أكثر تكرارا ، وأن يعطوا تقديرا او درجة لبعض العوامل مثل قسوة الطبيعة وكثافة السكان والقـــوة العسكرية والاكتفاء الذاتى وطموح القادة وغير ذلك من العوامل التى عرضنا لها ، وفى هذه الحالة يمكن معالجة المادة الناتجة عن هذهالدراسة معالجة احصائية باستخدام معامل الارتباط . واذا حدثت هذهالدراسة بالنسبة لفترة تاريخية معينة ، ثم كررت لفترات تاريخية متعددة ، فانه يمكن اكتشاف أولا : العوامل المرتبطة ارتباطا عاليا بالعدوان فى فترة معينة من تاريخ العالم ، ثانيا : ثبوت معاملات الارتباط من فترة الى أخرى . وسوف تلقى هذه الدراسة العلمية الضوء على الاهميةالنسبية لقائمة طويلة من العوامل والاســـباب والظروف التى يبدو أنها تسهم بطريقة أو بأخرى فى استثارة الحركات الاجتماعية العدوانية .

ومن أجل ان نفهم حركة اجتماعية عدوانية مثل الحركة الصهيونية لا يكفى أن ندرس اسبابها ومثيراتها الحالية ، ولكن يجب أن نهتم الى جانب ذلك باستقصاء العلاقات الدينامية المتداخلة عبر التاريخ ، أى أن نبحثها من منظور تاريخى .

فالمحاولة الحديثة ، ليست أول محاولة لليهود لاقامة دولة عنصرية توسعية ، فقد كانت لهم فى الماضى محاولات جاءت وذهبت ، محاولات مرت بحلقات متميزة من حيث التوسع وضم الاراضى بالقوة والعدوان ، ولكن ما لبثت هذه الحركات الاجتماعية وغيرها أن تلاشت واندثرت ، يبدو اذن أن الحركات الاجتماعية العـدوانية تتبع نمطا عاما وهى انه توجد دائما فترة من النمو وفترة من القوة والازدهار ثم فترة من الانحدار ثم الانحلال والاندثار . ويهمنا أن نعرف العوامل التى ساعدت علىالنمو والظهور ثم القوة والازدهار والعوامل التى أدت الى الانحلال والاندثار.

خصائص الحركات العدوانية الجماعية :

تتميز الحركات الاجتماعية العدوانية بما يأتى :

١ ــ توجد عادة خلفية من القلق وعدم الاستقرار الاجتماعى .
٢ ــ توجـــد شبكة متفاعلة من الظروف الاجتماعيـــة والسياسية والاقتصادية تعمل على ظهور جماعات معينة أو طبقات معينة من الناس تلقى مصاعب كبيرة وتواجه احباطات كثيرة .
٣ ــ لا تحظى الحركات الاجتماعية العدوانية بالتأييـد المطلق من كل الاعضاء ، وهى تستقطب أكثرهم احباطا وأكثرهم اســـتعدادا للاستهواء والايحاء .
٤ ــ وراء كل الحركات الاجتماعية العدوانية قادة عدوانيون .

٥ — لكل الحركات العدوانية أهداف خاصة ومحددة ، وعادة ماتصاغ في شكل مطالب .

٦ — لكل الحركات العدوانية خطة وبرنامج عمـل لتحقيق أهدافها ، ويتمثل جزء من هذه الخطة في تجنيد أعضاء المجتمع .

٧ — لكل حركة اجتماعية ايديولوجية تعمل على ربط أعضاء الجماعة بعضهم بعضا .

٨ — عندما يكون العمل العدوانى ناجحا ومثيبا ، كما يحـدث بالنسبة للاعتداءات الصهيونية المتكررة ، فانه يصبح عادة ، وتستقطب مزيدا من الاعضاء ، وتكتسب قوة دفع أشد .

٩ — وأخيرا ، تبدأ هذه الحركة الاجتماعية العـدوانية في الاضمحلال عندما تعترضها قوة مضادة تهددها أو تلحق بها هزيمة وسـوف نعالج هذه الخصائص فيما يلى بتفصيل أكبر .

الظروف الدافعة :

أولا ، ما هو المناخ النمطى الذى يفرخ هذه الحركات الاجتماعيـــة العدوانية ؟ غالبا ما يوصف هذا المناخ في اصطلاحات مثل الاضطراب أو القلق الاجتماعى ، والاحساس بالضيق وعدم الرضا والسخط وغيرذلك وتشير هذه المصطلحات الى الظروف الاجتماعية التى يمكن أن نصفها بلغة علم النفس بالقول انه عندما يخبر عدد من الافراد قدرا كبيرا وغير عادى من الشقاء والحرمان وتقتير الرزق ، ويجبرون على خفض مستوى حياتهم ويضطرون الى التنـــازل عن امالهم ومطامحهم العزيزة عليهم والاثيرة لديهم ، فانهم يستجيبون بالتذمر والشكوى والنقد ، أو بالتهديد والوعيد لاى شخص أو جماعة أو نظام يعتقد بمسئوليته عن الظروف المحيطة . وقد يكون الموقف المحيط الكلى اقتصـــاديا أو اجتماعيا أو سياسيا أو دينيا أو كل هذه الاسباب مجتمعة .

ومن بين العوامل الاقتصادية ، البطالة والتضخم وفداحة الضرائب وتناقص المدخرات وقلة المحاصيل وارتفاع الاسعار وتزايد أعبــاء المعيشة ، وتناقص الدخول . ويعتبر انعدام الامن الاقتصادى أيضا من العوامل الهامة ، سواء كان هذا الامن يتعلق بالحاضر أو المستقبل .

وتكشف دراسة الحركات الاجتماعية العدوانية ابتداء من الاضرابات حتى الثورات والحروب ، أنها أكثر عرضة للحدوث عندما يعانى عـدد كبير من شباب الامة قدرا كبيرا من المصاعب المتعلقة بحاضرهم ومستقبلهم مثل ارتفاع الاجور المستمر وعدم زيادة في المرتبات .

والعوامل السياسية والاجتماعية التى تستثير الحركات الاجتماعية العدوانية أو تعجل بها ، ذات دلالة كبيرة ، وقد تتصل هذه العوامل بالعوامل الاقتصادية أو لا تتصل ونجد فى بعض الاضرابات العمالية ، أن العمال لا يرغبون فى أجور أكثر أو ساعات عمل أقل أو ما شابه ذلك ، ولكنهم يطالبون بتحسين مراكزهم وأوضاعهم ، والمشاركة فى الادارة وتأمين حاضرهم ومستقبلهم . وكثيرا ما تنشأ الحركات الاجتماعية العدوانية نتيجة احساس بالاضطهاد أو الامتهان أو الهزيمة ، وتشكل هذه المشاعر وغيرها من مشاعر الاحساس بالنقص ، الخلفية لكثير من الحركات العدوانية .

والواقع أن حاجات مثل الدخل والمكانة والامن ، تعتبر من أهم الحاجات الانسانية التى ينشدها أفراد مجتمعنا ، ومن ثم تزداد حساسية هذه الحاجات وبعد احباطها من أهم مثيرات العدوان لانه يكون شديد القسوة . ويمكن أن تحبط المخططات الاقتصادية وينخفض الدخل عن المستوى المتوقع بعدة طرق . وتحبط المكانة عندما يطلب من الشخص أن يقبل مرتبه أو أن يلعب دور أقل من ذلك الدور الذى تعود عليه ، ويحبط امن الشخص عندما يتعرض دائما للهجوم والاستغلال من الآخرين ، أو عندما تتداعى وسائل الحماية والتدعيم التى بذل جهدا كبيرا فى اقامتها .

ونخلص من كل ما سبق الى القول بأنه عندما تعرقل الطرق المألوفة لحياة جماعة من الناس أو أن تحبط نتيجة لظروف لا يستطيعون التحكم فيها والسيطرة عليها كأفراد ، وعندما يمكن التغلب على هذه الظروف بالتكتل والعمل الجماعى ، فان التكوين النفسى عندئذ يكون مهيأ لحركة اجتماعية عدوانية .

من هم أعضاء الحركات الاجتماعية العدوانية :

صنفان من الناس هم الذين يمكن ان ينخرطوا فى الحركات العدوانية وينساقوا وراءها : هؤلاء الذين تحبط حاجاتهم وتعاق خططهم ويحال بينهم وبين أهدافهم . وهؤلاء الذين كونوا عادات الكراهية والعدوان والقتال . وتستمد أغلب الحركات العدوانية أكثر مؤيديها من الطبقة الاجتماعية الوسطى — الدنيا (١) . والسبب فى ذلك هو أن أفراد هذه

---

(١) يقسم بعض علماء الاجتماع الطبقة الوسطى الى ثلاثة فئات هى : الطبقة الوسطى العليا ، والطبقة الوسطى — الوسطى ، والطبقة الوسطى — الدنيا ، والاخيرة هى اقرب أفراد الطبقة الوسطى الى الطبقة الدنيا .

الطبقة يحسون قسوة الظروف الاقتصادية وشدة وطأتها ، لان افراد هـــذه الطبقة يكافحون بحرارة للخروج من هـــذه الدائرة الضيقة ، ويناضلون بشدة من أجل الحصـــول على مكانة ارقى فى المجتمـــع ، ويجاهدون ببطولة للحصول على تعليم أفضل لابنائهم ومساكن أحسن يعيشون فيها الخ .. هؤلاء الاشخاص أكثر عرضة لان تحبط حاجاتهم وتطلعاتهم من هؤلاء الذين يقبعون فى أدنى مراحل السلم الاقتصادى ، هؤلاء الذين يندر أن يحصلوا على ثلاث وجبات غـــذائية كاملة يوميا ، والذين لم يألفوا السكنى فى مساكن لائقة ، هؤلاء تقل مطامحهم وأهدافهم الاجتماعية والاقتصادية بل قد لا توجد ، ومن ثم فهم لا يحبطون بسهولة لانه مهما كانت الظروف قاسية ، فانها لا تعنيهم الا بدرجة بسيطة لانهم لم يخبروا ولم يعرفوا شيئا أفضل ، وعند هؤلاء دوافع اجتماعية بسيطة وتستثار دافعيتهم أساسا بحاجات فسيولوجية تتمثل بوجه خاص فى الجوع والبرد والتعب والجنس .

ويمكن القول بوجه عام أن أشد الناس احباطا بالظروف المعاكسة وغير المواتية مثل الكساد والتضخم والبطالة والدخول المنخفضة ونفقات المعيشة المرتفعة ، هم هؤلاء الافراد الذين يحتلون مكانة يستمتعون فيها بقدر من الدخل والرعاية والامن ويكافحون بحرارة من أجل مكانة أفضل لان لهم كما ذكرنا ، مطالب يريدون تحقيقها وأهداف يبغون الوصول اليها وخطط يتوسلون بها ، أى أن لديهم الكثير من الدوافع الاجتماعية ، ومن ثم فهم أكثر عرضة لاحباط هذه الدوافع .

ومع ذلك ، نجد فى كل الحركات الاجتماعية العدوانية أفرادا قلائل لا تنطبق عليهم الظروف التى أشرنا اليها ، وليس لهم مكان فى هـــذه الجماعات بكل المعايير الممكنة ، وذلك مثل الاستاذ الجامعى أو ابن الطبقة العليا أو شخص من فئة تتمتع بالدخل الطيب والامن والرعاية ولكننا نجدهم يلتحقون بهذه الجماعات العدوانية ، ونجد مثل هذه العينات فى فئات المهاجرين من أنحاء العالم الى اسرائيل وهـــم يؤازرون المؤسسة العسكرية الاسرائيلية . وبالاضافة الى هؤلاء وأولئك نجد من بين أعضاء الجماعات العدوانية المغامرين ورجال العصابات الذين يلتحقون بهـــذه الجماعات سعيا وراء المنفعة الشخصية والاستغلال . كما ان هناك من ينخرطون فى هذه الجماعات لما يجدونه من اشباعات فى كونهم أعضـــاء فى جماعة عدوانية وخاصة اذا كانت لها صبغة عسكرية .

والافراد الذين ينخرطون فى الجماعات العدوانية هم فى الغالب الذين تعلموا من الخبرات السابقة ان أكثر الطرق فاعلية للتغلب على العقبات

التى تحول بينهم وبينأهدافهم هو فى تكوين جبهة قوية من الاشخاص الذين فى نفس ظروفهم يقفون بها ضـــد الاشخاص أو التنظيمات أو الظروف المسئولة عن عدم تحقيق أهدافهم .

ولا يمكن أن تظهر الحركات الاجتماعية العدوانية تلقائيا نتيجة للقلق الاجتماعى أو السخط وعدم الرضا ، فكثيرا ما تأتى هذه الفترات وتمر دون أن تظهر أى حركة عدوانية فعالة ، ومن ثم فانه لظهور الحـــركة الاجتماعية العدوانية الفعالة لا بد من توافر قائد يستوعب كل هـــذه الظروف السائدة ويعبر عنها ويضـع الحلول لها . والقائد الناجح هو الذى يعد برنامجا واضحا له أهداف يمكن ان تحققها الجماعة ، وخطة عمل واضحة للوصول الى هذه الاهداف . ويجب أن تعرض الخطة على انها الحل الوحيد ، وأنها ليست عرضة للنقاش أو التعديل ، وينبغى على القائد أن يبدد كل خوف من عقاب قد يلحق بأعضاء الجماعة نتيجة الالتحاق بالحركة والمشاركة فى برنامجها ، أو على الاقـــل يقنعهم بأن ما سيحصلون عليه فى المستقبل سيفوق كل أنواع المشاق الحالية . وقائد مثل هذه الحركات العدوانية هو الشخص الذى يثير مظهـــره وتصرفاته وأقواله ميولا عدوانية نحو الاشخاص الأخرين ، مثلما فعـل « هرتزل » و « بن جوريون » ويفعل الآن « موشى ديان » ونستطيـع ان تجمع مجلدا من كلمات القتال والعدوان التى ترد فى أقوال قادة المؤسسة العسكرية الصهيونية . ولكن هذه الاقوال مهما بلغت فلا يمكن أن تلقى آذانا صاغية الا اذا كانت فى أفراد لديهم عادات يمكن أن تثيرها هذه المثيرات . أى أن يكون الناس الذين توجه اليهم هـــذه المثيرات الكلامية قد اكتسبوا خلال حياتهم ذخيرة من العادات العدوانية والا فلن تكون لهذه المثيرات أية فاعلية . وبالاضافة الى ذلك ، فلا بد ان يكون لدى أفراد الجماعات العدوانية عادات الاصغاء الى القادة وطاعتهمواتباع أوامرهم .

ولا يستطيع القائد أن يعبىء الكراهية والعدوان الا اذا وجد فعلا عدوانا يمارس ، وأثيب الناس بممارستهم هذا العدوان والسـير وراء قادتهم واتباع أوامرهم . ويفسر ذلك حرص قادة اسرائيل على شن غارات ناجحة والقيام بعدوان خاطف ضـــد العرب هنا وهناك ، حتى يضمنوا الطاعة والولاء من أتباعهم . ولذلك فان حرب الســادس من اكتوبر سوف تقلب كل مخططاتهم والاسس التى أقاموا عليها مؤسستهم العسكرية العدوانية .

ضرورة وجود أهداف محددة :

يلى شخصية القائد شرط غاية فى الأهمية لنجاح اى حركة عدوانية،

هو بيان أهداف الحركة والوسائل التى ستتخذ لتحقيقها ، وغالبا ما توضع هذه الأهداف فى صورة مطالب تتقدم بها هيئة أو لجنة أو مؤسسة . وهذه المطالب غالبا ما نجد لها أهدافا بعيدة وأهدافا قريبة .

وبيان الأهداف البعيدة والقريبة واظهارها فى شكل مطالب لها تأثير كبير على أعضاء الجماعة وعلى تعبئة الكراهية ضد من يعترضون تحقيق هذه الأهداف .

وعندما تحدد حركة عدوانية أهدافها وتحدد مطالبها واغراضها ، فلابد أن تظهر تقدما ملموسا نحو تحقيق هذه الأهداف أو أن ينفض عنها عدد كبير من مؤيديها ، ومن ثم تبدأ فى توجيه بعض الضربات العدوانية البسيطة قبل أن توجه ضربتها الكبرى التى تأمل عن طريقها تحقيق مطالبها . ومن أجل ذلك تضع هذه الحركات العدوانية لنفسها أهدافا ثانوية بالاضافة الى الأهداف الكبرى ، يعرف قادة هذه الحركة انهم يستطيعون تنفيذها بسهولة كافية بالتصرف الهجومى المناسب ، وهى بذلك تهيىء لأعضائها ممارسة مثابة للعدوان والكراهية .

كيف تتشكل الجماعة العدوانية :

يعتبر تجنيد الأفراد وضمهم الى جماعة بحيث يصبح عددها مناسبا لتحقيق أغراضها ، من أهم أهداف قادة الجماعة ، وتلجأ الصهيونية الى أسلوب الهجرة لتحقيق ذلك ، ويتم اقناع اليهود بالهجرة عن طريق الدعاية واثارة العواطف والانفعالات الدينية بتحقيق وعد الرب والعودة الى أرض صهيون .

ولكن ضم اعضاء جدد الى حركة ما يتطلب شيئا أكثر من مجرد الثورة الانفعالية ، وقد تكون كلمة مثل « أرض الميعاد » و « الوطن القومى» وغيرها كافية لتحرك العامة نحو الهجرة واقناعهم بترك مصالحهم والذهاب الى اسرائيل ، ولكنها ليست كافية لاقناع الخاصة بوضع مصائرهم فى دولة يحف مستقبلها كثير من الشك والغموض .

واذا كانت اسرائيل تقيم أمنها على السلوك العدوانى والقوة الرادعة وأسطورة الجيش الذى لا يقهر ، فان العقلاء من اليهود رأوا فى ذلك سلاحا ذو حدين ، الحد الآخر هو الخوف من العقاب الناتج عن العدوان المضاد . ولقد اظهرت حرب السادس من أكتوبر صدق حدس هذا النفر من اليهود ، فقد انهارت خرافة الجيش الذى لا يقهر ، وانهار جزء كبير

من الأساس الذى بنت عليه اسرائيل دعايتها لترغيب يهود العالم فى الهجرة الى اسرائيل .

ولكى تحتفظ الجماعة العدوانية بقوتها فانها تعمل ككل متحد ممثلة جبهة صلبة ولا تسمح بأى نزاع أو خصومات داخلية ، وهناك عدة طرق يمكن أن تدرك بها هذه الجماعة الوحدة ، أهمها جودة التنظيم . وأفضل صور التنظيمات يتمثل فى الجيش ، وعماد هذا التنظيم المسئولية من أسفل الى أعلى ، والسلطة من أعلى الى أسفل . ولكل فرد دور معين فى التنظيم ، وهو مسئول أمام رئيسه المباشر ، والقائد مسئول فى النهاية أمام الجماعة .

وتعنى السلطة أول ما تعنى مسئولية منح الثواب وتوقيع العقاب . وكل فرد فى الجماعة يمكن أن يثاب أو أن يعاقب من الذين فى مرتبة أعلى منه ، وليس من الذين هم فى مرتبة أدنى منه .

أهمية الايديولوجية :

تعتبر الايديولوجية من الوسائل الهامة فى توحيد الجماعة ، والايديولوجية تعنى المعتقدات والأفكار ومسارات العمل من أجل تحقيق أهداف الجماعة . والايديولوجية الصهيونية قد بنيت حول انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، أرض الميعاد ، والامتداد بهذا الوطن من النيل الى الفرات . وترغب اسرائيل فى أن يكون كل يهود العالم مواطنين اسرائيليين يعملون من أجل تحقيق هدفها ، ويشاركون فى حمايتها وتدعيمها .

وتفيد الايديولوجية فى تبرير الوسائل وخطط العمل التى تؤدى الى تحقيق أهداف الجماعة ، بل انها تؤدى الى تبرير الأهداف ذاتها ، وبذلك تضفى عليها نوعا من المنطقية والمشروعية . فتبدو التصرفات مهما كانت ، مشروعة ومعقولة . وبالاضافة الى ذلك تتيح الايديولوجية وتهيىء قدرا كبيرا من الاثارة والدافعية .

عادة العدوان الجماعى :

عندما تحقق الجماعة العدوانية أهدافها وتصل الى أغراضها ، هل تهدأ وتستقر وتعمل على المحافظة على مكاسبها باتخاذ اتجاه دفاعى ؟ أم انها تبدأ فى اتخاذ أهداف وأغراض جديدة وتندفع نحو انتصارات أبعد ؟ نستطيع أن نوجه هذا السؤال فيما يتعلق بالحركة الصهيونية

العدوانية ، هل اذا وصلت اسرائيل الى تحقيق أهدافها الراهنة وهى انشاء دولة يهودية فى فلسطين ، هل ستكتفى بذلك وتعزز مكاسبها وتقلع عن سياستها العدوانية ؟

لكى نجيب على هذا التساؤل ، ينبغى أن نتذكر أن السلوك العدوانى ، مثله مثل أى سلوك آخر يعتبر أساسا وظيفة لعاملين هما العادة والدافع ، وتستطيع العادات القوية أن تعمل وأن تسير مع دوافع ضعيفة ، ولكن العادات الضعيفة تتطلب دوافع قوية للتغلب على العادات الأخرى . ومسألة ما اذا كانت الجماعة العدوانية ستواصل سياستها العدوانية أم لا ، فان ذلك يتوقف على قوة العادة بالنسبة للعادات الأخرى المنافسة ، وقوة الحوافز بالنسبة للحوافز الأخرى المنافسة .

وفيما يتعلق بعادات العدوان الجمعى ، فانه اذا حققت جماعة معينة مطالبها ووصلت الى أهدافها وحصلت على ما تريد بتهديد ومهاجمة الآخرين ، واذا كانت الخسائر والأعباء تتناسب مع النتائج الضخمة التى حققتها ، فانه تبعا لقانون الأثر ، يعزز سلوك العدوان الجمعى وتقوى العادة . ونجد مثالا واضحا على ذلك ، فى العدوان الصهيونى المستمر على البلاد العربية وأنه لن يحصل على أكبر المكاسب بأقل الخسائر .

وتزودنا الدراسات الانثروبولوجية بأمثلة كثيرة للعدوان الجماعى ، فنجد قبائل تحصل على قوتها بالسلب والنهب والاغارات المستمرة على جيرانها ، وتعتبر هذه الاغارات جزء من سياستها . وكذلك نجد بعض القبائل الرحل تتجول من مكان الى آخر تنهب وتسرق القبائل الزراعية المسالمة . فما سبب هذا المسلك ؟ يمكن القول بأن هذه القبائل قد وجدت بالمحاولة والخطأ أن من الأسهل والأفضل الحصول على طعامها بالطريقة السهلة السريعة المتمثلة فى الاغارة والغزو بدلا من الطريقة الشاقة الطويلة المتمثلة فى زراعة المحاصيل وتربية قطعان الماشية وصيد الحيوان . وحتى لو لحقت بهم بعض الخسائر وأصابهم بعض العقاب فى هذه الغزوات ، فان ذلك يعد شيئا بسيطا اذا قورن بما حصلوا عليه من مكاسب . وعندما تتكون مثل هذه العادات فان الأمر يحتاج الى قدر كبير من عدم الاثابة وتوقيع العقاب حتى تنطفىء هذه العادات . وبذلك يمكن القول أن قانون الأثر يفسر الحركات الاجتماعية العدوانية .

والقبائل البدائية مثلها مثل الدول الحديثة ، تميل الى تنظيم حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والتربوية وفقا لعلاقاتها بغيرها من القبائل . فالقبائل المسالمة تذم الحرب والعدوان ، وتشجع

دوافعها بالطرق العـادية ، وتنظم التربية فيهـا بطرق لا تنمى عادات العدوان ، بل انها تنمى عادات الصداقة والتعاون .

أما القبائل أو الجماعات أو الحركات العدوانيـة التى استساغت السلب والنهب دون روادع كافية أو عقاب مناسب ، فانها تهتم بالتسليح والتدريب ، وتبتدع ايديولوجية تبرر سياستها ، وتقيم نظاما تعليميا يشجع على العدوان . وقد أجرى العالم الأمريكى « هـ . تامارين » الذى عمل مدة طويلة فى اسرائيل ؛ استخبارا جاء بنتائج ذات مغزى كبير بهذا الصدد .

فقد أعد ١٠٦٦ استمارة ذات محتوى واحد ، أجاب عليها كتابة ٥٦٣ تلميذا و ٥٠٣ تلميذة من مختلف الصفوف فى مدارس متفرقة فى أنحاء اسرائيل ، وقد عرضت الاستمارة لأجزاء من « سفر يشوع بن نون » فى التوراة ، وهذا السفر يدرس فى المدارس الاسرائيلية من الصف الرابع حتى الصف الثامن .

انك تعرف جيدا المقتطفات التالية من « سفر يشـوع » « اهلكوا جميع ما فى المدينة من رجل وامرأة وطفل وشـيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف » . « واحرقوا المدينة وجميع ما فيها بالنار[1] » . وأخذ يشوع « مقيدة » فى ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم ملكها وكل نفس بها ، ولم يبق شاردا ، وفعل بملك « مقيدة » كما فعل بملك « أريحا » ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل اسرائيل معه الى « لبنة » وحارب « لبنة » فدفعها الرب هى أيضا بين اسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف ، وكل نفس بها ، ولم يبق بها شاردا ، وفعل بملكها كما فعل بملك « أريحا » (من سفر يشـوع) أجب من فضـلك على السؤالين الآتيين :

١ ـ هل تعتقد أن يشوع بن نون والاسرائيليين قد تصرفوا تصرفا صحيحا أو غير صحيح ؟ (اشرح لمـاذا ترى هذا الرأى بالذات) ؟

٢ ـ لنفترض أن الجيش الاسرائيلى احتل خلال الحرب قرية عربية، فهل هو حسن أو سيء أن يتصرف على هذا النحو مع سكان هذه القرية كما تصرف يشوع بن نون مع شعب أريحا ... اشرح لمـاذا ؟

---

(١) يمكن مقارنة ذلك بما جاء فى وصية أبى بكر الصديق : « لا تخونوا ولا تغـلوا ولا تمثلو ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمـأكلة » وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا انفسهم فى الصوامع ، فدعوهم ، وما فرغوا أنفسهم له .

وقال « تامارين » ان ابادة الناس بالجملة التى قام بها « يشوع بن نون » ليست المثل الوحيد فى التوراة ، ولكنه اختار « سفر يشوع ابن نون » لأنه يحتل مكانا خاصا فى نظام التعليم الاسرائيلى .

وقد وزعت هذه الاستمارة فى مدارس تل أبيب وقرية بالقرب من الرملة ، وفى مدينة شارون ، ومستعمرة معوتشد وغيرها . وهذه بعض الاجابات .

كتب تلميذ من مدرسة فى مدينة شارون « كان هدف الحرب هو الاستيلاء على البلاد من أجل الاسرائيليين ، ولذلك فقد تصرف الاسرائيليون تصرفا حسنا باحتلالهم المدن ، وقتلهم سكانها ، وليس من المرغوب فيه أن يكون فى اسرائيل عنصر غريب . ان الناس من الأديان الأخرى يمكن أن يؤثروا على الاسرائيليين تأثيرا لا حاجة لهم به » .

وكتبت فتاة من مستعمرة معوتشد : « لقد تصرف يشوع بن نون تصرفا حسنا ، بقتله جميع الناس فى أريحا ، ذلك لأنه كان من الضرورى احتلال البلاد كلها ، ولم يكن لديه وقت لاضاعته على الأسرى » .

كانت الاجابات من هذا النوع تشكل ما بين ٦٦٪ و ٩٥٪ حسب المدرسة والمستعمرة او المدينة .

وعلى سؤال : هل يمكن فى عصرنا تصفية جميع سكان قرية عربية محتلة ؟ أجاب ٣٠٪ من التلاميذ بشكل قطعى « نعم » ونورد فيما يلى بعض ما كتبه التلاميذ : « أعتقد أن كل شىء قد جرى بشكل صحيح . اذ اننا نريد قهر اعدائنا ، وتوسيع حدودنا ، ولكننا نحن أيضا قتلنا العرب ، كما فعل يشوع بن نون والاسرائيليون » (الصف السابع) وكتب تلميذ من الصف الثامن : « فى رايى يجب على جيشنا فى القرية العربية أن يتصرف مثل يشوع بن نون ، لأن العرب هم أعداؤنا . ولذلك فهم حتى فى الأسر سيفتشون عن امكانية ليبطشوا بحراسهم (١) » .

هذه فقط بعض النتائج الملموسة للتعليم الصهيونى وهى لم تنضج تلقائيا وانما نمت على الشجرة الحقيقية للايديولوجية الصهيونية التى تعمل كل ما فى وسعها لتبرير العدوان وتسويغه وتكوين عادات العدوان والكراهية والقتال نحو العرب .

---

(١) يورى ايفانوف : احذروا الصهيونية . ص ٣٩ — ٤١ .

نرجع مرة أخرى الى مناقشة دور العادة والدافع فى الحركات الاجتماعية العدوانية . قبل حرب السادس من أكتوبر قام ١٩٧٣ (العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣) كانت الحركة الصهيونية لا تجد من يكبح جماحها ، وحققت كثيرا من أهدافها ، وكسبت حرب ١٩٤٨، ١٩٥٦ و ١٩٦٧ دون خسائر كبيرة ، وكانت هذه الانتصارات مثيبة جدا لليهود ، وخاصة لأنها تمت دون تضحية كبيرة أو خسارة جسيمة فى الأرواح ، الى أن جاءت حرب أكتوبر وبدأت اسرائيل لأول مرة منذ نشأتها تخبر خسارة حقيقية بل هائلة فى الأرواح على الجبهة السورية والمصرية ، وبدأ الدم الاسرائيلى يسيل بغزارة على سفوح الجولان وفوق رمال سيناء . وبدأ العملاق العربى يهب من سباته العميق ، بل بدأ بعث جديد للأمة العربية ليواجه هذه الحركة العدوانية التى أقامت دعايتها على أسطورة الجيش الذى لا يقهر . والذى نعتقده ان هذه الحركة العدوانية الصهيونية ستبدأ فى الضعف ، ونحن نستند فى هذا الاعتقاد الى كل مبادىء علم النفس وعلم الاجتماع وكذلك من استقراء التاريخ ودراسة كل الحركات العدوانية السابقة مثل الحركة النازية والحركة الفاشية ، ان كل حركة اجتماعية عدوانية يدب فيها الضعف عندما تواجه بعدوان مضاد ، لأن هذا العدوان المضاد بما يلحقه من خسائر وخاصة فى الأرواح ، سوف يجعل الحركة العدوانية تعيد النظر والتفكير فى سياستها العدوانية ، واسرائيل فى المرحلة الحالية ، ونحن فى منتصف ديسمبر عام ١٩٧٢ ، اما أن تستوعب درس الخسارة البشرية الهائلة التى لحقتها فتلجأ الى الدفاع وتكف عن العدوان ، أو أن تجمع قواها لتسدد ضربة قوية دون حساب ودون تدبير ، أى تقوم بمغامرة عسكرية، ولكن استعداد العرب الدائم واعادة تسليحهم وتدريبهم وجمع وتنظيم صفوفهم لن يمكن اسرائيل من ذلك ان شاء الله .

الصهيونية كحركة اجتماعية عدوانية

يشتق اصطلاح الصهيونية من كلمة « صهيون » وهى اسم لأحد الجبال المحيطة بمدينة القدس ، وكان النبى داود قد شيد فوق هذا الجبل حصنا ، وأقام فيه وسماه « مدينة داود » ثم صار لفظ صهيون يرد فى كتب اليهود الدينية ليدل على عاصمة المملكة التى هى فى نظر اليهود رمز لمجدهم (١) . فبعد أن قوض الاشوريون بنيان مملكة اسرائيل الشمالية عام ٧٢١ قبل الميلاد ، ودمر الرومان الولاية اليهودية

---

(١) برنامج التثقيف العام : لجنة الثقافة والفكر والاعلام . اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى . ص ٥ ، ١١ ، ١٢ .

عام ٧٠ بعد الميلاد بقيت فكرة دولة اسرائيل حية فى كلمات هذا المزمور السابع والثلاثين :

« على أنهار بابل هناك جلسنا ، فبكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون. على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا . لأنه هناك سألنا الذين سبونا ، كلام ترنيمة ، ومعذبونا سألونا فرحا قائلين : رنموا لنا من ترنيمات صهيون . كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة . ان نسيتك يا أورشليم تنسنى يمينى(١) » .

والصهيونية بمدلولها السياسى الحديث ، حركة اجتماعية عدوانية تهدف الى السيطرة على العالم فى المدى البعيد بدعوى أن الله استخلف اليهود على العالم بصفتهم شعبه المختار كما تكشف عن ذلك بروتوكولات شيوخ صهيون(٢) . ويتلخص موضوعها فى أن يهود العالم قد عقدوا العزم منذ القدم على أن يقيموا سلطانهم فوق كل سلطان ، فهم ليسوا أقلية مشتتة فى الأوطان المختلفة فى مشارق الأرض ومغاربها ، وانما هم وحدة متماسكة رغم التباعد الجغرافى ، لما بين طوائفها من اتصال قائم على التنظيم والتدبير المحكم ، بل ان تشتتهم هو مصدر القوة الذى يضمن لهم مؤازرة الحكومات المختلفة فى كل حركة من حركاتهم ، وهدفهم الأساسى أن تحكم الأمة اليهودية أمم العالم حكما ظاهرا ومستترا بيد حديدية ذكية .

« أن حقنا يكمن فى القوة (٣) » وخطتهم فى تحقيق ذلك الهدف تقوم على ما بلغه يهود العالم من قوة مادية وعلمية . وأيسر السبل لتحقيق سيادة اليهود فى الأرض انما تأتى من تركيز مقاليد النشاط الانسانى فى أيديهم سواء فى جوانبه المادية أو المعنوية . والاحتكار هو الشكل المختار لتنفيذ ذلك التركيز . وتفيض البروتوكولات فى وصف تفاصيل هذا المنهج . فعن طريق الالمام بأسرار الاقتصاد وعلمه والسيطرة على مصادره وقواه يحتكر اليهود الصناعة والتجارة ويجمعون مال الأرض فى مخازنهم ومصارفهم وبذلك يتصرفون فى مصائر العالم فى السلم والحرب . والسلم الذى تصوره البروتوكولات لا يختلف عن الحرب ،

---

(١) محمد خليفة التونسى : الخطر اليهودى ، بروتوكولات حكماء صهيون ، الطبعة الرابعة ١٩٥٥ ص ٩ .

(٢) الدكتور محمد عبد المعز نصر : الصهيونية فى المجال الدولى . ص ٨٠ - ٨٧ .

(٣) الفريد ليلينتال : ثمن اسرائيل . ترجمة حبيب الخولى وياسر هوارى . الطبعة الخامسة . البروتوكول الاول ص ٩٩ .

لأن اليهود سوف يحرصون على أن يسود الاضطراب العالم كله . لأن اشتعال النار بين الدول سيجعلها تحتاج الى أموال من خزائن اليهود ، وعندما يمد السائل يده الى المعونة يفرض اليهود شروطهم التى تدأب على التمكين للدولة الصهيونية العالمية . « أن الغاية تبرر الوسيلة ، وعلينا — ونحن نضع خططنا — ألا نلتفت الى ما هو خير وأخلاقى بقدر ما تلتفت الى ما هو ضرورى ومفيد(١) » .

والاحتكار عند اليهود متكامل الحلقات ، فهم وان كانوا يسعون الى احتكار كل ما يسيطر على معدة الانسان ، فهم أيضا يهدفون الى احتكار كل ما يسيطر على عقله وروحه وقلبه وعواطفه وشهواته . ولذلك كان احتكار الصحافة ووكالات الأنباء ودور النشر والانتاج السينمائى ودور السينما ومحطات الاذاعة والتليفزيون ، وعن طريق هذه الوسائل ، ينشر اليهود ما يتفق ومصالحهم ، ويمنعون من النشر كل ما يعارض هذه المصالح ، وهم يحرصون أشد الحرص على اضعاف المجتمعات غير اليهودية ، واشاعة الفساد بينها ، والتحريض على الفسق والمجون واتاحة أماكن اللهو .

وبالاضافة الى كل ذلك يرى شيوخ صهيون أن الانسان غير اليهودى حيوان منطو على الخصال الدنيا من الشهوات ، ويجب أن يتعلم الطاعة بالارهاب الذى يولد الخوف والفزع وينشرهما بين الناس فيطأطئون الرؤوس للحركة الصهيونية العدوانية عنوة وكرها . « ويجب علينا أن نكون مستعدين لمقابلة أى معارضة باعلان الحرب على ما يجاورنا من بلاد تجرؤ على الوقوف فى طريقنا ، ولكن اذا غدر هؤلاء الجيران فقرروا الاتحاد ضدنا — فالواجب علينا أن نرد على ذلك باشعال حرب عالمية (٢) » .

ونستطيع أن نتتبع نشأة وظهور دعوى الصهيونية فى الخطوط الموجزة الآتية :

١ — انها ظهرت كفكرة رومانسية تتغنى بأرض الميعاد وبأمجاد بنى أسرائيل وبآلامهم وبسببهم واضهادهم .

٢ — انها وصلت الى حد المشكلة التى تتطلب الحل بعد أن لاقى

---

(١) المرجع السابق : البروتوكول الأول ص ١٠٠ .

(٢) المرجع السابق : البروتوكول السابع ص ١٢٢ .

اليهود ألوانا من الاضطهاد الذى أذكاه التعصب الدينى فى أوربا من ناحية، وسلوك اليهود ومؤامراتهم واستغلالهم لشعوب أوربا من جهة أخرى .

٣ — أن الفكرة والمشكلة تلقفتها المطامع الفردية على يد رجال ذوى طموح واسع مثل « هرتزل » وغيره ، وتضافرت هذه الظاهرة مع بروز المد والمصالح الاستعمارية الغربية وتطلع الرأسمالية الأوربية والامبريالية الأمريكية الى مناطق وأسواق فيما وراء بلادها وتركيزها النظر والأطماع على منطقة الشرق الأوسط .

٤ — ان الحركة الصهيونية العدوانية ، فضلا عن استغلالها للأطماع الاستعمارية والامبريالية استثمرت عقدة الذنب لدى بعض ساسة أوربا تجاه اضطهاد اليهود ، على نحو ما يوضح هرتزل فى كتاب « الدولة اليهودية » حين يقول « ان قوتنا الدافعة هى بؤس وشقاء اليهود » هذا الى جانب رغبة الكثير من هؤلاء الساسة فى التخلص من أعداد من اليهود الذين يعيشون فى دولهم ، ويرفضون الاندماج فيها ويعملون ضد مصالحها .

تأييد يهود العالم للحركة الصهيونية العالمية :

يؤيد يهود العالم الحركة الصهيونية العالمية ويدعمونها ويشاركون فى سياستها لأسباب متعددة ، فقد يكون ذلك من أجل المكاسب الأنانية والبعض الآخر من أجل التخلص من الاحباط ، كما أن كثيرين يؤيدونها خوفا من عدم الانتماء اليها . والواقع ، ان قوة الحركة الصهيونية لا ترجع الى تأييد يهود العالم كلهم لها ، ولكن كثيرين قد ايدوها لأنهم خشوا التشهير والتهديد بل القتل .

ويقول « الفريد ليلنتال » الصحفى الأمريكى الجنسية اليهودى العقيدة(١) أنه عندما ظهرت فكرة تقسيم فلسطين كان من العسير جدا على أى يهودى أن يناقش الموضوع بحرية وصراحة . وعندما قامت اسرائيل صار من الواجب على اليهودى الا يتعرض بالنقد لسياسة الدولة الجديدة ، واذا ما ارتفعت معارضة يهودية تحاول التصدى لتيار الحركة الصهيونية العدوانية ، أخمدت فى مهدها ، بعد أن يخشى أصحابها أن تلصق بهم تهمة « خيانة يهودية » . وعندما كتب « آرثر سولتز » اليهودى ورئيس تحرير جريدة « نيويورك تايمز » فى أكتوبر عام ١٩٤٦ يقول : « اننى أكره أساليب العنف والعدوان التى يلجأ اليها الصهيونيون .. فهم

---

(١) الفريد ليلينتال : ثمن اسرائيل : ص ١٢١ — ١٣٥ .

لا يترددون لحظة واحدة عن استخدام شتى الوسائل الاقتصادية لاخماد أصوات الذين يعارضونهم فى الرأى ، ولهذا ، فأنا أحتج على هذه المحاولات التى يقصد بها خنق أصوات المعارضين لأهداف الحركة الصهيونية » عندما كتب رئيس تحرير ذلك قوطعت الصحيفة فى أمريكا وأوشكت على الافلاس .

وعندما وقف « الدكتور هارى جيد » عميد كلية بروكلن ، يحذر المسئولين الأمريكيين من مغبة حصر اهتمامهم فى مساعدة اسرائيل ، دون نظر الى مصالح أمريكا العليا فى المنطقة ، شنت عليه صحافة نيويورك المأجورة حملة عنيفة ، ووصفته بأنه يعمل على تشجيع العرب للاعتداء على اسرائيل .

وقصة « الفريد ليلينتال » وما حدث له بصدد مقالة « راية اسرائيل ليست رايتى » مثال على الاضطهاد والتهديد الذى يلقاه كل من يجرؤ على الوقوف فى وجه الحركة الصهيونية العدوانية ، فقد قوبل المقال بعاصفة شديدة من الحملات والانتقادات والتهديدات ، وانهالت على رأسه من على المنابر اليهودية ، أعنف الحملات والاتهامات ، وطالبت المنظمات الصهيونية بوضع اسمه فى القائمة السوداء ، وأن تتخذ تدابير فعالة ضد هؤلاء اليهود المارقين .

ومن الطريف أن نورد نص كلام « ليلينتال » عن نموذج من التهديدات التى تعرض لها يقول(١) :

« ولأعد الى صباح أحد أيام السبت ، عندما تلقيت محادثة هاتفية من مجهول ، خاطبنى بلكنة أجنبية بقوله : هل انت ذلك الفأر الحقير الذى نشر مقالا انتقد فيه الحركة الصهيونية فى صحيفة بوست ؟

فسألته ببرود : من أنت ؟

فجاءنى الجواب : اننى جوزيف هالوتس ، من الهاجاناه ، واذا لم توقف مقالاتك فسوف تقتل فورا ، لأنك تعرقل الخطط التى نناضل من أجلها » .

من كل ذلك نستنتج أن قادة الحركة الصهيونية العدوانية كانوا يحرصون على خنق كل صوت من شأنه أن يثير الشكوك ويدل على وجود معارضة يهودية ضد الصهيونيين .

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

وكذلك اجتذبت الصهيونية مؤيديها من اليهود بالدعاية فقد أثاروا مشاعرهم بأنهم شعب الله المختار ، وبأنهم أفضل الأجناس وأنقاها ، وأنهم يمكن أن يبينوا للعالم ذلك بتكوين دولة يظهرون فيها عبقريتهم الاقتصادية ونوع تكوينهم الممتاز الذى يتكونون منه ، وأنهم كجنس نقى ممتاز لا يمكن أن يسلكوا كما يسلك الجبناء أو المنحطين ، وينبغى أن تسير القافلة بلا رحمة نحو هدفها وغايتها ، والويل والدمار لأى دولة يمكن أن تقف فى طريقها ؛ ولماذا يقنع اليهودى الى الأبد بالمعيشة الطفيفة ويأخذ الفتات المتخلف عن دول العالم ، وهم أنقى وانبل جنس فى العالم . وقد ادت هذه المحاولات الى انطباعات كثيرة وخاصة على الجيل الجديد فى اسرائيل الذين شبوا فى ظل انتصارات المؤسسة العسكرية الصهيونية وفى ظل أسطورة الجيش الذى لا يقهر . وقد كان هؤلاء الشباب فخورين بكونهم تروس تدور فى ماكينة الصهيونية ممتلئين بالقوة والاعجاب بقادتهم العسكريين وخاصة بعد حرب الأيام الست .

الفلسفة التربوية للحركة الصهيونية :

فى اليهودية ارث تناقلته الأجيال جيلا بعد جيل ، وحفظه كل يهودى عن ظهر قلب ، وهذا الارث رسخ فى ذهن اليهودى منذ الصغر الفكرة القائلة « بأنك مختلف عن سائر البشر .. فأنت يهودى .. ومن واجبك أن تساعد اخوانك اليهود .. » .

وهذه الفكرة عبارة عن عقيدة تلقن لليهودى منذ الطفولة حتى قبل أن يعرف معناها ومغزاها ، وتنمو بنموه ، ويصبح معها مستعدا لتقبل فكرة الصهيونية عن طريق الدين بعد أن انطبعت جذورها فى أعماق قلبه . وهكذا يحتفظ ويختزن فى أعماقه حتى بعد أن يبلغ سن الرشد بجميع المتناقضات التى غرست فى نفسه طوال عملية تنشئته وتطبيعه اجتماعيا ، دون أن يميز الطيب منها والخبيث ، بين الصالح والطالح . وقد لمس قادة الصهيونية تأثير هذه التربية على عقلية الشباب اليهودى، فحرصوا كل الحرص على تلقين هذا النشء وهو فى بيته وبين أهله هذه التعاليم ليقبلها فيما بعد ، كحقيقة غير قابلة للجدل أو التعديل(١) .

بعد قيام دولة اسرائيل وتثبيت الزعماء الصهيونيين لسلطتهم وتكريس حركتهم العدوانية ، احتاجوا لنموذجين من الاسرائيليين ، النموذج المتعصب الذى غسلوا مخه وافرغوا عقله وملأوه بالحقد والضغينة والكراهية والعدوان ، وهو النموذج الأكثر ملاءمة ، والنموذج الساذج

---

(١) الفريد ليلينتال : ثمن اسرائيل — ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

الذى يضحك كالأبله عند رؤية آلام البشرية ، هذا النموذج الذى سلبوه أحاسيس العطف والتعاطف فهو يرى فى قتل العرب وتذبيحهم أشياء سارة .

والمشكلة التى تواجه اسرائيل فى الوقت الراهن والتى كرس لها أساتذة التربية فيها كل اهتمامهم ، هى مسألة تكوين « الأمة الاسرائيلية» وذلك للتناقضات الكبيرة الموجودة داخل اسرائيل فيما يتعلق بتكوين السكان فيها . ويعترف بن جوريون بذلك فى كتابه « اسرائيل وسنوات النضال » الذى يثبت أن « اليهود فى اسرائيل يشكلون أمة أقرب الى أن تكون محتملة من أن تكون واقعية ، فالمهاجرون القادمون بعد انشاء الدولة لم يتأقلموا تماما مع الوسط الجديد ، ولم يصبحوا جزءا منه من وجهة النظر الاقتصادية والثقافية » . ويضيف : « ان الجماعات اليهودية المتباعدة من حيث اللغة والتاريخ والثقافة والاقتصاد ، تتحول تدريجيا الى أمة واحدة(١) » .

وفى نفس المرجع يورد « ايفانوف(٢) » ما يقوله « جابوتيفسكى » « لقد تعرفت فى أورشليم بشخص لطيف تقدمت به السن ، واسع الاطلاع ، مهذب ، وبينما كنا نتنزه فى أحد أحياء أورشليم الجديدة رأينا رجلا فى الثلاثين من عمره مستقليا على الرصيف يجرع « العرق » من الزجاجة مباشرة ، قال مرافقى : تأمل هذا الرجل ، لقد أتى من تونس ، كان هناك يشرب العرق ــ مشروبهم المفضل ، وهاهو يشربه هنا ، انه يعيش هنا منذ فترة وجيزة ، ولم يتلخص بعد من العادات المكتسبة عبر القرون ، والتى تتناقلها الأجيال ، أنا أقرأ فى كتب السياسة والاقتصاد والعلوم ، وهو يشرب العرق فى الشوارع ، نحن الاثنين يهود ، ولكن أى شىء يجمعنا ؟ لا شىء . وما الشىء الذى يبعد بيننا ؟ كل شىء . اننا لا نتقن حتى لغة واحدة لكى نتفاهم .. بين أبنائنا وأحفادنا ، وأحفاد أحفادنا ستتلاشى المفارقات ، وسيشكلون هم ، المجتمع الجديد ، الموحد ، ولكنه ليس المجتمع اليهودى ، بل المجتمع الاسرائيلى » .

ان وحدة التركيب أو البناء النفسى ، هو أحد المقومات الرئيسية للمجتمع وللأمة ، ولهذا يولى فلاسفة التربية اهتماما خاصا لمسألة التأثير على التكوين أو البناء النفسى لليهود ، وان غرس أفكار مثل شعب الله المختار ، والجنس النقى وغيرها من الأفكار العنصرية هو الهدف

---

(١) يورى ايفانوف : احذروا الصهيونية ص ١١٠ .

(٢) نفس المرجع ص ١١٤ .

الفعلى لكافة البرامج الدراسية فى المؤسسات التعليمية فى اسرائيل ، فالتلاميذ الاسرائيليون يدرسون فى فترة ثمانى سنوات من التعليم الاجبارى فى المدارس ، وهى مرحلة الدراسة الابتدائية ، تاناخ ، والمشنا ، والتلمود بمعدل ١٥٠٠ ساعة دراسية ، بينما يخصص لجغرافية البلاد الأجنبية ٢٠ ساعة فقط .

ويتوسل بشتى الوسائل لتعميق الأفكار الصهيونية ، من الموضوعات التى تحفل بها الكتب والتى تحض على التفانى فى خدمة أهداف الصهيونية ، وفى كل مكان من اسرائيل يبرز الاقتباس التالى من التوراة : «ها هى أرضكم يا أبناء اسرائيل . .» ويدرس كل تلميذ بلغ السادسة من عمره التوراة ، ويعرف نهاية المقطع الشعرى « من نهر النيل الى النهر العظيم — نهر الفرات » وفكرة « اسرائيل الكبرى » مع تبرير الاغتصاب الحالى واللاحق للأراضى العربية ويقوم « بن جوريون » بـ « تنوير » التلاميذ ويقول :

« ان خريطة اسرائيل ليست بخريطة بلادنا ، لدينا خريطة أخرى ، وعليكم أنتم ، طلبة وشبيبة المدارس اليهودية ، أن تجسدوها فى الحياة، وعلى الأمة اليهودية أن توسع رقعتها من النيل الى الفرات » . وكذلك نرى الزعيم الصهيونى « مناحم بيجن » يقول : « عندما نمتد بأبصارنا الى الشمال ، نرى سهول سوريا ولبنان الخصبة ، وفى الشرق تمتد وهاد الفرات ودجلة الغنية وبترول العراق ، وفى الغرب بلاد المصريين ، لن يكون لدينا القدرة الكافية على النمو ، ان لم نسو قضايا الأراضى من موقع القوة ، وعلينا ان نجبر العرب على الخضوع التام » .

ولا يمكن أن ينسى الزعماء الصهيونيون أن يركزوا على العدوان ويغرسون فى عقول النشء ، فينفث «مناحم بيجن» سمومه : « أنتم أيها الاسرائيليون ، يجب الا تأخذكم الرأفة عندما تقتلون عدوكم ، عليكم الا تشفقوا عليه ما دمنا لم نقض بعد على الحضارة العربية التى سنبنى على أنقاضها حضارتنا » .

وقد ساهمت مثل هذه الدروس فى تكوين الشخصية الصهيونية ، هذه الدروس التى استخدمت حجاب التوراة للتمويه واخفاء تكشيرة الأنياب المفترسة . ويوضح المثال التالى تأثير التربية الصهيونية ، بعد انشاء اسرائيل بوقت قصير ، غادرت احدى العائلات بولندا الى اسرائيل ، وكان بين أفرادها طفل يبلغ العاشرة من عمره ، وبعد مرور خمس سنوات ، قال هذا المراهق لأحد الصحفيين الاسرائيليين عندما أجرى معه حديثا : « الا ترى أن العربى يظل دائما عربيا ، عندما يرى

العربى بندقية فانه يولى الأدبار ، ولو لم تكن هناك الأمم المتحدة لكانت قناة السويس منذ زمن طويل فى أيدينا ، ولكنا ذبحناهم جميعا ، الا أن ذلك لن يفوتنا فى المستقبل » .

ليت شعرى ما هو شعور هذا الفتى الآن بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ اذا لم يكن قد قتل على رمال سيناء بالقرب من قناة السويس أو على سفوح الجولان ، بل ربما كان بين الآسرى الذين رفعوا أيديهم تحية للعلم المصرى وهم يخرجون من حصون « خط بارليف » مشدوهين غير مصدقين وكأنهم يعانون من كابوس ثقيل ، وكما انهار خط بارليف انهارت كل دعايات الصهيونية وأحلامها على صخرة الصمود العربى والبطولات العربيـــة .

أهداف الحركة الصهيونية العدوانية :

ذكرنا فيما سبق أن الحركات الاجتماعية العدوانية لابد أن يكون لها أهداف محددة ، فما هى أهداف الحركة الصهيونية العدوانية ؟ يمكن تلخيص هذه الآهداف فيما يلى :

الهدف الأول

الاستعمار الاستيطانى الاحلالى :

الحق ، أن اسرائيل فى الجوهر والأساس ، مشروع استيطانى أوربى اقامته الصهيونية العالمية ، فالهجرة الى فلسطين ظلت الى ما بعد قيام دولة اسرائيل ، أوربية خالصة ، ولم يهاجر يهود الشرق الى « أرض الميعاد » الا على أثر المشكلات التى أوجدها فى البلاد العربية قيام تلك الدولة وولاء الكثيرين منهم لها على حساب الوطن الذى نشأوا فيـه ، فأوربا هى موطن اضطهاد اليهود الذى كان أمرا عاديا طـــوال العصور الوسطى وحتى الثورة الفرنسية ، والذى اشتدت وطأته فى شرق أوربا حيث يكثر عدد اليهود ، ويرجع هذا الاضطهاد أساسا الى سلوك اليهود أنفسهم حيث احترفوا تجارة المـال والاقراض بالفائدة ، الأمر الذى جعلهم محل اضطهاد وازدراء المجتمعات التى يعيشون بينها ، كل ذلك دفعهم الى التفكير فى اقامة دولة تكون خالصة لهم وركيزة لامبراطورية واسعة (١) . واتجهوا فى سبيل ذلك نحو الشرق العربى والى فلسطين بوجه خاص .

---

(١) الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله : فى مواجهة اسرائيل يوليو ١٩٦٩ ص١٨١٧

واذا كان هدف الصهيونية هو اقامة دولة صهيونية كبرى فى فلسطين يستوطن فيها اليهود من كل شتات العالم ، فان هـذا الهدف يؤدى بالضرورة الى استبعاد كل عنصر غير يهودى والتخلص من العرب المسلمين والمسيحيين أصـحاب الأرض الشرعيين حتى يحل محلهم مهـــاجرون آخرون ، ولهذا لجأت اسرائيل الى ممارسة صور التفرقة العنصرية ضد عرب فلســطين الأصــليين لاجبارهم على ترك البـلاد وترك أموالهم وممتلكاتهم بها(١) .

لن نتكلم عن الوقت الذى كان فيه عدد اليهود فى فلسطين لا يتجاوز ٥ آلاف شخص ، ولنأخذ مرحلة قيام دولة اسرائيل .

بمقتضى قرار الأمم المتحـدة الذى اتخـذ فى نوفمبر ١٩٤٧ اقتطع لاسرائيل ١٤ ألف كيلو متر مربع لسكان يبلغ عددهم ، مليون ومائة الف شخص ، منهم ٦٠٠ ألف يهودى و ٥٠٠ ألف عربى . ونتيجـة لحرب ١٩٤٨ ألحقت اسرائيل بهذه الأراضى ستة آلاف كيلو متر مربع من أرض فلسطين العربية مع ما يقرب من ٤٠٠ ألف نسمة ، وفى بداية عام ١٩٤٩ وحسب المعطيات الاسرائيلية ، بقى على رقعـة الأرض الموجودة تحت اشراف اسرائيل والتى تبلغ مساحتها ٢٠ ألف كيلو متر مربع ، ١٦٠ الف عربى فقط .

والأسئلة التى تفرض نفسها الآن هى : الى أين وفى أى ظروف اختفى من يستفيد منها ؟ لمن أعطيت هذه الارض ؟ كم قتل منهم ليكونوا «عبرة» للذين لم يرغبوا فى ترك وطنهم الأصلى ؟ كم مات منهم جوعا ومرضا ؟ لنورد بعض الوقائع التى يستشهد بها الاسرائيليون أنفسهم (٢) :

« ان أغلبية العرب طردوا عنوة وقت حرب ١٩٤٨ وتم تدمير قراهم ، فى ٥ يونيو عام ١٩٤٨ طرد من اسرائيل بالقوة سكان قرية ايركيت العربية فى الجليل الغربى . وفى ١٥ نوفمبر من نفس العام طرد سكان كفر فيرام عنوة . وفى ٤ فبراير عام ١٩٤٩ تعرضت غالبية سكان كفر عنان للطرد القسرى الى ماوراء الأسلاك الشائكة . وقام الجيش بهدم القرى . وفى ٢٨ فبراير من نفس العام تم اعتقال ٧٠٠ عربى من اللاجئين فى قرية كفر ياسين ورحلوا عنوه الى ما وراء الحدود . وفى ٢٤ يناير عام ١٩٥٠ قامت

---

(١) الدكاترة : حسن ظاظا وعائشة راتب ومحمد فتح الله الخطيب ، الصهيونية العالمية واسرائيل ص ١٢٣ .

(١) يورى ايفانوف : احذروا الصهيونية ص ١١٥ ، ١١٦ .

وحدات من الجيش الاسرائيلى بطرد سكان قرية القابسية الى ما وراء الحدود . وفى ٧ يوليو من نفس العام رحل بالقوة ما يقرب من ألفى عربى يقطنون مدينة مجدل عسقلان من البلاد . ومن ١ — ١٠ فبراير عام ١٩٥١ تم استعمال العنف لطرد سكان ١٣ قرية عربية تقع فى وادى عربة الى ما وراء الحدود .

هذه عينة بسيطة لتبين هذا الهدف من أهداف الصهيونية ، ولتمهد لالقاء الضوء على الهدف الثانى من أهداف الصهيونية .

الهدف الثانى : التوسع الاقليمى :

ازاح بن جوريون فى تصريح رسمى له الستار عن هذا الهدف عندما قال: « ان من واجب يهود العالم أن يعودوا الى وطنهم الأول » وهذا التصريح لم يصدر عن رجل عادي وانما صدر عن رئيس حكومة مسئول ويعتبر المنفذ الفعلى لدولة اسرائيل وزعيم الحركة الصهيونية فى العالم ، وهو عندما يتحدث ، فانما ينطق بما له من صلاحية مطلقة للتعبير عن عقيدة الصهيونية الصريحة دون موارية أو تنميق . وقد أدلى بهذا التصريح عام ١٩٤٩ عندما كان يخطب فى حفل حضره فريق من اليهود الامريكيين كان يزور اسرائيل . ومما جاء فى خطابه « .. ومع اننا حققنا حلمنا الاول فى اقامة دولة يهودية ، فنحن ما زلنا فى أول الطريق .. ففى اسرائيل الآن حوالى مليون يهودى فقط ، بينما تقيم أغلبية الشعب اليهودى خارج دولتنا ، وهدفنا الآن ينحصر فى حث جميع يهود العالم على العودة الى اسرائيل .. ولهذا فنحن نتوجه الى الاباء اليهود ، كى يساعدونا فى ارسال أبنائهم وبناتهم الى هذه الارض المقدسة .. »

ما هو عدد الشبان الذين يريد بن جوريون احضارهم لاستيطان اسرائيل ؟ لقد أوضح هو نفسه ذلك عند زيارته للولايات المتحدة عام ١٩٥١ اذ قال : « ان اسرائيل تستطيع أن تستوعب اربعة ملايين من اليهود خلال السنوات العشر القادمة » .

والواقع ، أن من يتأمل التطور التاريخى لتنفيذ المخطط الصهيونى يرى بوضوح منهج الصهيونية فى التوسع ، والذى يتلخص فى الدعوة المستمرة والتشجيع الدائم ليهود العالم للهجرة الى اسرائيل حتى يصل اليهود فيها الى العدد الذى ذكره بن جوريون .

ولا يتصور ان تستوعب تلك الدولة الصغيرة مثل هذا العدد المتزايد

الا اذا امتدت حدودها وتوسعت على حساب البلاد العربية . وقد دعا ليفى اشكول رئيس وزراء اسرائيل عقب حرب يونيو ١٩٦٧ رسميا الى انشاء « اسرائيل الكبرى » بضم اجزاء من الاراضى التى احتلها الجيش الاسرائيلى بحيث يصبح سكان الدولة الصهيونية عشرة ملايين . وحينما سئل بن جوريون عن مشاعره فى أعقاب حرب ١٩٦٧ أجاب قائلا « قولوا للغرب أن يرسل لى ثلاثة ملايين شاب يهودى » .

الهدف الثالث : السيطرة الاقتصادية :

ليس أمام اسرائيل الا التوسع الاقليمى او الانهيار الاقتصادى والبشرى ، فأمام البطالة وانخفاض مستوى المعيشة لابد أن يهاجر من اسرائيل كل الذين يرفضون العيش فى مستوى أقل مما تعودوه فى أوربا وسيكون أول المهاجرين العناصر الفنية والعلماء الذين تحتاجهم أوربا ، وبذلك ينتاب اسرائيل الضعف فى أهم قواها الحيوية .

على أن التوسع الاقليمى ليس دائما أمرا سهلا هينا ، والدول العربية لن تكون دائما الفريسة السهلة لاسرائيل ، فان هذه الدول ذات الحضارة العريقة سوف تستيقظ يوما ، وقد استيقظت الان بالفعل ولقنت اسرائيل درسا قاسيا ، بل لطمة هزت كل كيانها . اننا نرى اسرائيل تسعى للسيطرة الاقتصادية على العالم العربى ، بمعنى أن تكون قاعدة صناعية متقدمة تسيطر اقتصاديا على المنطقة المحيطة بها تأخذ المواد الخام من البلاد العربية وتصنعها وتزود بها الاسواق العربية . وكذلك تطمع اسرائيل فى البترول العربى وتريد أن تكون شريكا فى استغلاله ، سواء عن طريق تصنيعه أو عن طريق نقله عبر الانابيب او تكوين شركات اسرائيلية للبحث والتنقيب عنه .

وهكذا يتضح أن الصهيونية حركة اجتماعية عدوانية تسعى نحو الانقضاض على البلاد العربية المحيطة بها وسلبها أراضيها جزءا جزءا ونهب ثرواتها وخيراتها يساندها ويدعمها فى ذلك الاستعمار العالمى والامبريالية العالمية وخاصة الولايات المتحدة الامريكية التى عندمافوجئت بقبضة الجيوش العربية تضيق عليها الخناق ، وبدأت اسرائيل تترنح تحت ضربات الجيوش العربية فتحت لها ترسانة أسلحتها وأعطتها ماقيمته أكثر منمائتى مليون دولار أسلحةفىشهر واحد ، وعبأتجيوشها وأعلنت حالة التأهب بين قواتها النووية الضاربة ، كل ذلك عندماشعرت أن اسرائيل ربيبتها قد أصبحت مهددة .

هذه هى الحركة الصهيونية العدوانية ، والتى اصبح عدوانها لايقتصر

على البلاد العربية وحدها ، بل انه اصبح يهدد أمن العالم كله وسلامته ليس ذلك فحسب ، بل أصبح يهدد العالم بالفناء ، ولذلك لابد من وضع حد لهذه الحركة العدوانية وتقليم أظافرها ، وجعلها تنكمش على نفسها وتفقد قوتها المهددة ، ولن يكون ذلك الا عندما يستيقظ المارد العربى، وتقف الامة العربية كلها صفا واحدا كالبنيان المرصوص يشد بعضه أذر بعض .



الفصل الثالث

حرب أكتوبر ١٩٧٣

اسرائيل ربيبة الاستعمار والامبريالية :

قبل أن نعرض للحرب المجيدة التى خاضتها الارادة العربية ، يجب أن نعرض بايجاز للعلاقة العضوية الوثيقة بين اسرائيل والاستعمار ، لان هذه الحرب وما سبقتها حروب ، لم تكن فى الواقع الا حربا بين العرب واسرائيل مدعمة بقوى الاستعمار والامبريالية ، ففى حرب ١٩٥٦ اشتركت مع اسرائيل جيوش انجلترا وفرنسا . وفى حرب ١٩٧٣ فتحت أمريكا ترسانة اسلحتها على مصراعيها لاسرائيل ، وأمدتها بأسلحة ومعدات تزيد قيمتها على ألفى مليون من الدولارات ، غير ما كانت قد أمدتها بها من قبل ، وصرح كل المسئولين الامريكيين أن أمريكا لا يمكن أن تسمح للعرب بالانتصار على اسرائيل .

ثمة علاقة واضحة اذن بين اسرائيل والولايات المتحدة الامريكية ، وليست هذه العلاقة سرا كان مجهولا فأصبح معروفا ، بل هى أحدى حقائق الموقف الاساسية ، فبين عام ١٩٤٩ و ١٩٦٦ حصلت اسرائيل من أمريكا على مساعدات قدرها ٢ر١ مليار دولار ، واستطاع صندوق الطوارىء الاسرائيلى فى أمريكا خلال أسبوع واحد قبل عدوان يونيو ١٩٦٧ أن يجمع مبلغ ٩٠ مليون دولار . .

والواقع أن تاريخ الحرب بين العرب والحركة العدوانية الصهيونية يوضح أنه كان دائما مرتبطا بالقوى الاستعمارية .

ومن المؤكد أن المصالح الاستعمارية والامبريالية للغرب فى الشرق الاوسط ، وهى مصالح هائلة تتلخص فى ثروات البترول العربى والاستثمارات الاقتصادية فى اسرائيل تواجه دائما اكبر الخطر من قوى التحرر الوطنى ونمو القوة العربية .

وسوف نضرب أمثلة بسيطة لذلك دون الدخول فى تفصيلات ومن ثم تكون الارقام ابلغ الدلائل على ذلك .

ان انتاج البترول العربى يمثل ٥ر٢٨ ٪ من الانتاج العالمى و٩ر٣٥ ٪

من انتاج العالم الراسمالى تقريبا ، وان كل طن من طنين تنتجهما احتكارات البترول فى العالم الثالث يأتى من البلاد العربية ، وهذا يفسر أن تجار البترول الغربيين يحصلون سنويا على دخل يبلغ ألفى مليون دولار من استغلال وبيع البترول العربى ، عدا الارباح الناتجة عن نقله . ويضاعف من حرصهم عليه أنه موجود فى منطقة الشرق الاوسط ، وهى اغنى منطقة فى العالم باحتياطى البترول فهى تمثل ٦٥ ٪ من الاحتياطيات المؤكدة فى العالم ، ٥ر٧٥ ٪ من احتياطيات العالم الرأسمالى تقريبا . ان ثلاثة أطنان من كل أربعة أطنان من البترول الاحتياطى تسيطر عليه احتكارات البترول ، توجد هنا فى الشرط الاوسط . وقد ظهرت القوة الهائلة للبترول كسلاح فى يد العرب عندما بدأوا فعلا يستخدمون هذا السلاح ، وقوة تأثيره فى عالم الغرب الاستعمارى والدول المؤيدة لاسرائيل .

وفيما يتعلق باستثمارات رؤوس الاموال الامريكية بوجه خاص فى اسرائيل ، فمن المعروف أن لرجال الاعمال الامريكيين شبكة كاملة من الفروع لشركاتهم ووكالاتهم التى تعمل فى جميع أنحاء اسرائيل ؛ وأكبر مستثمر فى اسرائيل هو المجموعة الامريكية التى تراسها شركة امبال ـ أمريكان التى استثمرت قبل نهاية عام ١٩٦٤ نحو ٣٣ مليون دولار فى اقتصاد اسرائيل ، وبوجه خاص فى المشروعات التى تعمل فى تصنيع البترول والكيماويات والاسمدة ، وشركات التنقيب عن المعادن . وتتضح العلاقة الوثيقة بين تشجيع الحركات العدوانية الصهيونية والاستثمارات الاجنبية فيما ورد فى النشرة الاخبارية التى تصدر فى نيويورك تحت اسم "Economic Notes" والتى تقول « أن احتلال اسرائيل لشبه جزيرة سيناء هبة الهية حقيقية بالنسبة لشركات البترول الامريكية التى ترغب فى الاستقرار فى شبه الجزيرة » (١) .

وبعد زيارة جولدا مائير للولايات المتحدة فى بداية اكتوبر عام ١٩٦٩ ازدادت الروابط العسكرية بين البلدين ، وبغض النظر عن التسليح الامريكى لاسرائيل فقد تأكدت العلاقة العضوية بين المؤسسات العسكرية الامريكية والمؤسسة العسكرية الصهيونية العدوانية واعلنت امريكا صراحة وعلانية أن الخدمة فى الجيش الاسرائيلى لا تتناقض مع مصالح الولايات المتحدة ، ومن الان فصاعدا ، فان مواطنى الولايات المتحدة يمكن أن يحصلوا على الجنسية الاسرائيلية ويخدموا فى قوات اسرائيل المسلحة بغير أن تنزع عنهم الجنسية الامريكية .

---

(١) تقرير وفد جمهورية مصر العربية فى المؤتمر الدولى للبرلمانيين الذى عقد فى القاهرة من ٢ – ٥ فبراير ١٩٧٠ .

وبالاضافة الى اعتماد اسرائيل على قوى الاستعمار والامبريالية ، فانها تعتمد أيضا اعتمادا وثيقا على قـــوى الصهيونية العالمية ، ومن المعروف أن مصالح الصهيونية العالمية تتشابك مع مصالح أكبر الاحتكارات الامريكية والبريطانية التى تتحكم فى كل بترول المنطقة تقريبا . وقـد أعلن قادة اسرائيل فى كل مناسبة انه من أجل المزيد من التعبئةالعسكرية فان اسرائيل تعتمد على المنظمات الصهيونية فى أنحاء العالم المختلفة . وأن اسرائيل التى اعتمدت على هذه المنظمات فانها تعتمد عليها الان فى تدعيمها العسكرى وشراء أسلحتها التى تشن بها عدوانها المستمر على البلاد العربية .

ان النزاع العربى الاسرائيلى ليس نزاعا عنصريا أو دينيا أو اقليميا بين العرب وأسرائيل ، ولكنه صراع بين الحركة الصهيونية العدوانية التى تدعمها قوى الاستعمار العالى والامبريالية العالمية بزعامـــة الولايات المتحدة الامريكية ، وبين حركة التحرر الوطنى والتقدم الاجتماعى فى المنطقة العربية . وفى هذا الصراع تلعب اسرائيل دورا مزدوجا ، فى خدمة الاحتكارات الاجنبية وفى خدمة أغراضها الخاصة التوسعية فى المنطقة فى هذا الاطار ينبغى ان توضح حرب اكتوبر المقدسة ، فان اسرائيلتماطل فى الانسحاب من الاراضى التى احتلتها بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، ومن ثم خاضت الجيوش العربية والشعوب العربية حرب التحرير المقدسةلاعادة أراضيها المحتلة ولاعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى .

ان اسرائيل حقيقة استعمارية وحركة صهيونية اجتماعية عدوانية ، وهم وان كانوا قد استطاعوا ان يوهموا الغرب وأن يخدعوا العالم بأنهم قوى التقدم وحملة مشعل العلم والتكنولوجيا الي العرب المتخلفين والذين لا يمكن أن يستوعبوا منجزات الحضارة فى هذه الميادين ، واذا كانوا قد استطاعوا أن يبهروا العالم بالحروب الخاطفة التى انتزعوها نتيجة نوم العرب وغفلتهم وانهماكهم فى معارك داخلية شتتهم قواهم وبددت طاقاتهم فان العرب عندما استيقظوا وادركوا حقيقة الخطر الذى يتهددهم جميعا وعندما تنبهوا واتحدوا ، وتوافرت لهم القيادات الحكيمة المؤمنة بهروا العالم باستيعابهم لمنجزات العصر من العلوم والتكنولوجيا ، وفى ايام من أنصع أيام التاريخ العربى ، وفى شهر اكتوبر المجيد الموافق شهر رمضان المبارك خرج الجندى العربى سليل الحضارات العظيمة وصاحب الامجاد الخالدة ليلقن الصهيونية المعتدية التى صالت وجالت ضاربة هنا وهناك درسا لن تنساه ، ولطمة تعيد اليها صوابها وتوقف عدوانها .

حرب اكتوبر المجيدة :

اننى اكتب السطور الاخيرة من هذا الكتاب فى الاسبوع الاخير من

شهر ديسمبر ولا زالت أصداء الحرب تتردى ولا زالت أصابع أبطالنا فوق الزناد منتبهين متيقظين خوفا من حركة غادرة من عد جربنا غدره ومكره وبالرغم من العدد الكبير الذين قابلتهم من أبطالنا الجرحى والناقهين فى المستشفيات والذين قصوا على الكثير من قصص الحرب والعبـــور والانتصارات ، الا اننى احتراسا من ان أورد بعض المعلومات التى يمكن أن يفيد منها العدو ، سوف اقتصر على المعلومات التى نشرت والاحاديث التى أذيعت رسميا .

عندما انطلقت « الشرارة » كما اسماها الرئيس انور السادات ، وبدأت خطة « بدر » كما أطلق عليها العسكريون بدأ كل شىء يتحرك وفقا لهذه الخطة (١) .

ضربة الطيران الرئيسية : مائتا طائرة تقوم بالضربة الاولى على مواقع العدو الحساسة فى الجبهة المصرية ، ومائة طائرة تقوم بالضربة الاولى على الجبهة السورية .

تمهيد هائل بالمدفعية : ألفا مدفع تهدر فى نفس الوقت على أربع قصفات متلاحقة ...

موجات الهجوم الاول : فجاة وجد العدو امامه ثمانية آلاف رجل ينزلون الى قوارب المطاط وغيرها من الوسائل ويبدأون العبور تحت النار .

العدو يقاوم من النقط الحصينة لخط بارليف على طول القنـــاة ، والدبابات الرابضة فى مكامنها بجانب النقط الحصينة وأوكار المدفعية التى تعززها تشارك فى صد موجات الهجوم الاولى .

جنودنا يصلون الى النقط الحصينة برغم كل مقاومة ... بعض النقط الحصينة عنيدة فى دفاعها ولكن جنودنا يقتحمون بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية داخل الحصون .

كانت أصعب اللحظات هى الساعات التى سبقت دخول الدبابات خصوصا فى قطاع الجيش الثالث .

---

(١) فريق اول أحمد اسماعيل : أهرام ١٨ نوفمبر ١٩٧٣ .

أن الجيش الثانى نصب جسوره وأخـــذ دباباته وراءه فى الوقت المحدد .

اما فى قطاع الجيش الثالث فقد ظهر أن الساتر الترابى أعمق مما قدرنا ..

كان فى بعض المواقع بعرض مائتى متر ولم تكن الارض صالحةلنصب كبارى العبور **لكن المهندسين كانوا فى أعظم لحظات حياتهم ولقد قام مدير سلاح المهندسين بنفسه الى مواقع جسور الجيش الثالث وأشرف على اتمام المهمة واتمها واستشهد نائب مدير سلاح المهندسين على أحد جسور العبور .**

قواتنا البحرية تتحرك لضرب أهداف حيوية للعدو على شاطىء البحر الابيض وعلى شاطىء البحر الاحمر .

قواتنا الخاصة تنزل وراء خطوط العدو فى عمق سيناء لتضرب خطوط امداده ولتعطل هجماته المضادة وتعرقلها .

التدفق من الغرب الى الشرق مستمر فى نفس الوقت .. لا يتوقف ولا ينقطع .

فى أربع وعشرين ساعة

كانت لدينا فى الشرق خمس فرق كاملة .

ذلك شىء لم يحدث مثله من قبل فى تاريخ الحروب .

وبدأت قواتنا فى توسيع وتعميق وضم رؤوس الكبارى ليصبح لنا ثلاثة رؤوس أساسية فقط ، وفى نفس الوقت فلقد كانت أول مهمة باشرناها — وهذه من مفارقات المعركة — ان نبدأ بعملية نسف مواقع خط بارليف وأن نزيلها من مكانها والى الابد محتفظين بواحدة منها للعبرة والذكرى ... فى أول يوم دمرنا ١٤ موقعا وفى اليوم التالى تسعة وهكذا حتى تحولت النقط الحصينة ، حلم اسرائيل فى الامن المطلق ، الى أنقاض وركام .

العبور العظيم وتداعى الخرافة الاسرائيلية :

ان العبور الذى حققه جيشنا رمز لبعث أمة وانطلاقها نحو تحقيق ذاتها الحضارية .

ان عبور قناة السويس بواسطة جيش كبير بل بواسطة جيشين فى وقت واحد بكامل أسلحتهم وعتادهم وفى وجه مقاومة من العدو على الضفة الشرقية يعتبر مشكلة ضخمة بل كانت تبدو أحيانا كأنها عملية مستحيلة . ان عبور الموانع المائية بواسطة الجيـــوش كان دائما من العمليات الصعبة ولكنها لم تكن ابدا من العمليات المستحيلة فكم من جيوش عبرت موانع مائية فى الماضى البعيد والماضى القريب دون ان يشد ذلك انتباه العالم . لقد فقدت الموانع المائية قيمتها بعد تطور أسـلحة الغوص فى الماء والسير على قاع المانع المائى ضمن تنظيم القوات البرية . أما قناة السويس فانها تعتبر مانعا مائيا فريدا يختلف عن جميع الانهار والقنوات للاسباب التالية :

١ ــ انحدار الشاطىء من الناحيتين وتدبيشه مما يعوق المركبات البرمائية من النزول الى المانع المائى أو الصعود منه الا بعد تجهيزات هندسية مسبقة . وهذه الصفة لا يشترك فيها مع قناة السويس سوى قناة بنما وعدد محدود من القنوات الصناعية .

٢ ــ قيام العدو بانشاء ساتر ترابى على الضفة الشرقية للقناة مباشرة بارتفاع ١٠ ــ ٢٠ مترا مما يجعل من المستحيل على أى مركبة برمائية العبور الا بعد ازالة هذا الساتر .

٣ ــ انشاء خط بارليف على طول الساحل الشرقى للضرب على أى قوات تحاول العبور . وقد انتخبت مواقع هذا الخط بعناية فائقة بحيث تتحكم فى جميع الاتجاهات وتستطيع أن تغمر بالنيران الجانبية اى قوات تعبر القناة وفى اى جزء منها .

٤ ــ وجود خزانات للمواد الملتهبة يسع كل واحد منها ٢٠٠ طن من المواد الملتهبة على مسافات متقاربة بحيث يمكن للعدو ان يدفعها فوق سطح المياه ثم يشعلها فيتحول سطح القناة الى حمم ملتهبة تحرق كل شىء فوق الماء بل وتشوى الاسماك فى عمق القناة وتلفح حرارتها الشخص

الذى يبعد عنها بمسافة ٢٠٠ متر . ويستطيع العدو أن يتحكم فى استمرار هذه النيران باستمرار دفع المواد الملتهبة الى سطح الماء .

ومن هنا نجد ان قناة السويس ليست مجرد مانع مائى بل انه مانع فريد ليس له شبيه فى العالم وليس هناك خبرة سابقة فى التاريخ لعبور مثل هذا المانع . وكان لابد من حل جميع هذه المشاكل وقد قمنا بتجزئة مشكلة العبور الكبرى الى عدد من المشاكل الصغيرة وأخذنا نحاول ونجرب ونعدل الى أن تم حل جميع هذه المشاكل .

ويقول رئيس الاركان السابق أنه صرح بعد عودته من احدى المناورات بأن قناة السويس تعتبر أصعب مانع مائى فى العالم ومع ذلك فاننا سوف ننجح فى اقتحامه باذن الله وقد نقلت وكالات الانباء العالمية هذا التصريح ولكن اسرائيل حاولت أن تستفيد دعائيا من هذا التصريح فأيدت وجهة نظرى بخصوص صعوبة القناة كمانع مائى ولكنها اضافت اننا لن نستطيع ان نعبر وان قواتنا ستدمر تدميرا كاملا قبل ان تصل الى الشاطىء الشرقى للقناة اذا نحن تجاسرنا وحاولنا العبور .

والآن ، كيف بدأ العبور ؟ وكيف تم التغلب على المشاكل التى اعترضتنا ؟

ست مشكلات رئيسية

يقول رئيس الاركان السابق كانت المشكلة الاولى التى يجب علينا أن نتغلب عليها هى كيف نتغلب على النيران الملتهبة التى سوف تغطى سطح القناة عند بدء العبور . وقد اتجه تفكيرنا اول الامر الى اطفائها وقمنا بعمل تجارب عملية على ذلك فى أماكن شبيهة بالقناة فاتضح لنا ان عملية الاطفال تحتاج الى مجهودات ضخمة وان النيران تبقى مشتعلة حوالى نصف ساعة اذا لم يتم تزويدها بكميات اضافية من المواد الملتهة . ومن هنا اتجه تفكيرنا الى ضرورة ابطال استخدام هذه المواد قبل العبور واذا حدث أن أخفقنا فى ابطال استخدامها فى بعض الحالات فانه يجب علينا أن نمنع العدو من تغذية الحريق بكميات اضافية من المواد الملتهبة، وذلك لاقلال فترة تعرض قواتنا للحريق الى أقل وقت ممكن . ومن هنا بدأنا العمل وتم استطلاع تجهيزات العدو الخاصة بهذا الموضوع فاتضح أنه يضع هذه المواد فى خزانات كبيرة مدفونة تحت سطح الارض حتى يصعب تدميرها بواسطة المدفعية وكانت هذه الخزانات متصلة بمواسير تحت سطح المياه لتندفع منها السوائل الملتهبة الى سطح المياه . ومن الواضح أنه لو أمكن اغلاق هذه المواسير بأى وسيلة معينة قبل بدء عملية

العبور فان السوائل الملتهبة لن تصل الى سطح الماء ولن يحدث الحريق وكان هذا هو الاتجاه الذى أخذنا به وبدأنا نتدرب عليه . كانت خطتنا هى أن نبعث ببعض الافراد المتسللين لاغلاق هذه المواسير بالاسمنت مع تكليف بعض أفراد من الصاعقة بسرعة الاستيلاء على هذه المستودعات ومنع استخدامها فى حالة الفشل فى اغلاق المواسير الموصلة الى المياه . وزيادة فى الحيطة درسنا اتجاه التيار فى القناة على طول ساعات اليوم وانتخبنا قطاعات الاختراق بحيث تعبر قواتنا فوق التيار وبذلك نتفادى النيران فوق سطح الماء . . وقد تمت العملية بنجاح تام ولم ينجح العدو فى اشعال حريق واحد فوق سطح القناة وتم الاستيلاء على مستودعات المواد الملتهبة سليمة بكل ما فيها بل وتم أسر الضابط المهندس الاسرائيلى الذى قام بتصميمها وقد أدلى فى أقواله أنه حضر الى القناة فى اليوم السابق للقتال لكى يختبر هذه المستودعات .

وكانت المشكلة الثانيـة هى كيف يمكن ازالة الساتر الترابى الذى أقامه العدو على الضفة الشرقية حتى يمكن أن نقيم المعديات والكبارى على القناة . ويمكننا أن نتصور ضخامة هذه العملية اذا علمنا أن ثغرة واحدة فى الساتر الترابى بعرض حوالى ٧أمتار تعنىازالة ١٥٠٠ مترمكعب من الاتربة ؟ كانت احتياجاتنا تتطلب فتح ٦٠ ثغرة على طول القناة فى كل جانب ، أى ازالة حوالى ٩٠٫٠٠٠ متر مكعب من الاتربة من الساتر الترابى شرق القناة . فاذا علمنا اننا خلال السنوات الست الماضية كنا قد أقمنا أيضا ساترا ترابيا فى غرب القناة خشية أن يقوم العدو بهجوم مفاجىء علينا اتضح لنا أن المشكلة أصبحت مضاعفة وانه يتحتم علينا أن نفتح ثغرات مماثلة فى الساتر الترابى الغربى . اتجه تفكيرنا أول الامر الى أن نفتح هذه الثغرات بواسطة التفجير واستمرت نظرية التفجير هى السائدة حتى منتصف عام ١٩٧١ الى أن اقترح احد الضباط المهندسين الشبان نظرية التجريف وهى استخدام المياه المندفعة تحت ضغط عال فى ازالة هذه الرمال . قمنا بعمل التجارب وثبت نجاحها وأفضليتها على نظرية التفجير وأخذنا ندخل التحسينات بزيادة قوة الماكينات الى أن أصبح فى مقدور رجال سلاح المهندسين أن يفتحوا الثغرة الواحدة فى مدة تتراوح بين ٣ ــ ٥ ساعات .

لم تكن فتح الثغرة فى الساتر الترابى هى نهاية المشكلة بل كان من الضرورى تهذيب جوانب القناة بالنسف والتسوية حتى يمكن تثبيت الكبارى أو تجهيز هذه الثغـرات لتشغيل المعـديات وعبور المركبات البرمائية .

واذا جاز لنـا ان نقـدم كشف حساب عما قام به المهندســون

العسكريون فاننا نقول انهم قاموا بشق ٦٠ ثغرة فى الساتر الترابى وأقاموا عشرة كبارى وما يقرب من ٥٠ معدية عبر القناة ، كل ذلك خلال فترة ما بين ٦ — ٩ ساعات وقد تم التنفيذ طبقا لما كان مخططا تماما فيما عدا القطاع الجنوبى من القناة حيث كانت الارض غير صالحة لعمليات التجريف ونتج عن ذلك بعض التاخير فى اقامة الكبارى والمعديات عما كان مخططا . وان هذه الاعمال الهندسية الباهرة سوف تكون دائما مثار فخر للمهندسين المصريين فى جميع أنحاء العالم .

كانت المشكلة الثالثة هى كيف يستطيع المهندسون أن يقوموا بهذه الاعمال الهندسية الضخمة وهم تحت نيران العدو المسيطر فى الضفة الشرقية ؟ وكانت الاجابة الفورية هى ضرورة دفع المشاة عبر القناة لتأمين المهندسين وهو ما يطلق عليه فى التعبير العسكرى تأمين رؤوس الكبارى .

وكانت المشكلة الرابعة هى كيف تستطيع المشاه أن تعبر القناة وتؤمن رؤوس الكبارى الى أن تتدفق الدبابات والمدافع والاسلحة الثقيلة عبر المعديات والكبارى التى أقامها المهندسون ؟ وكيف تصمد المشاة أمام هجمات العدو المضادة بواسطة الدبابات لمدة تتراوح بين ١٢ — ٢٤ساعة الى أن يكتمل عبور الدبابات والاسلحة الثقيلة . وبعد دراسة مطولة أمكننا حل هذه المشكلة بناء على الاسس التالية :

(١) المشاة التى تكلف العبور تحمل معها أقل ما يمكن من التعيين والمياه واكثر ما يمكن حمله من سلاح وذخيرة وكان اجمالى ما يحمله كل جندى حوالى ٢٥ كيلو جراما وكان يصل أحيانا مع بعض الجنود الى حوالى ٣٥ كيلو جراما .

(٢) ابتكار عربات جر صغيرة يضع فيها المشاة ما لا يستطيعون حمله ويجرونه بأيديهم عبر الساتر الترابى وعند تحركهم شرق القناة .

(٣) تسليح المشاة بأسلحة مضادة للدبابات ولا سيما الصواريخ الخفيفة التى يمكن حملها بواسطة الافراد وذلك لصد هجمات العدو المضادة بواسطة مدرعاته .

(٤) تسليح المشاة بالاسلحة المضادة للطائرات ، وخاصة الصواريخ الخفيفة التى يمكن حملها بواسطة الافراد وذلك لصد هجمات العدو الجوية ضد قواتنا أثناء وبعد العبور .

(٥) تجهيز المشاة بسلالم لمساعدتهم فى تسلق الساتر الترابى وجر اسلحتهم وذخائرهم المحملة فى عربات الجر .

(٦) تنظيم عبور المشاه فى قوارب تنظيما تفصيليا بحيث يعلم كل جندى مكانه فى القارب ومكان العبور ووقته وواجبه أثناء العبور .. الخ.

(٧) التسلل خلال خط بارليف وعدم مهاجمة النقط القوية لهذا الخط الا بعد استكمال عملية العبور واكمال حصارها .

وخلاصة القول فاننا استخدمنا المشاة بنفس الاسلوب الذى كانت تستخدم به المشاة منذ العصور القديمة وان اختلفت الاسلحة التى فى أيدينا عن تلك التى كانت فى أيديهم .

وكانت المشكلة الخامسة هى كيف يمكن للمشاة أن تعبر هذا المانع بنجاح ما لم نقم بتدمير واسكات الرشاشات والمدافع التى تطل من فتحات خط بارليف وتغمر القناة بطولها ـ وقد قامت مدفعيتنا بحل هذه المشكلة على أحسن وجه . وكان نتيجة ذلك أن تمكن مشاتنا من عبور القناة بخسائر طفيفة جدا .

● وكانت المشكلة السادسة هى كيف نعيد تنظيم قواتنا على الشاطىء الشرقى وكيف تصل الدبابات والمدافع والذخيرة الى وحدات المشاة التى سبق عبورها .. كيف يتم كل ذلك ليلا وتحت ضغط العدو وكيف تميز هذه الدبابات والاسلحة طريقها وتتعرف على وحداتها . ويمكننا أن نتصور هذه المشكلة اذا تخيلنا أن آلاف الدبابات والمركبات والمدافع الثقيلة كان يتحتم عبورها لتنضم الى وحدات المشاة التى عبرت لتزيد من قدرتها على التمسك بالارض وضد هجمات العدو المتكررة .. وقد قامت ادارة الاشارة وادارة الشرطة العسكرية واجبها على الوجه الاكمل فقد أمكن مد كوابل الاشارة عبر القناة منذ اللحظات الاولى للعبور وتم تحديد الطرق والمدقات التى تسلكها الدبابات والعربات وتم تمييزها بالالوان المختلفة بحيث كان يعلم السائق أنه اذا اتبع اللون الاحمر مثلا فانه سيصل الى وحدته فى رأس الكوبرى بينما يتبع سائق آخر اللون الاخضر وهكذا . وقد دربت القوات قبل المعركة على ذلك وقامت بتنفيذها بكفاءة تامة .

وفيما يلى مشهد واحد من المشاهد العديدة للحرب التى وصفها المراسلان الحربيان لجريدة الاهرام ، الاستاذان عبده مباشر ومحمد باشا تحت عنوان « الاقتحام » (١) .

---

(١) الأهرام : ٢١ نوفمبر ١٩٧٣ .

مجموعات المشاة عبرت القناة فى زوارق من المطاط ، وتبعتها مجموعات المهندسين لتطهر الساتر الرملى من الاسلاك الشائكة وأحزمة الالغام .

وفى نفس الوقت تولت مجموعة أخرى فتح الثغرات فى الساتر الرملى .. ومن هذه الثغرات كانت طرق استخدمتها دباباتنا ومدافعنا الى حصون العدو .. ووصلت المجموعات الاولى من القوارب الى الضفة الشرقية ..

بدأ المشاة والصاعقة والرجال المقاتلون بقاذفات اللهب عملهم حيث يحتمى العدو .

وفى مواجهة مواقع حصينة كثيرة .. لم ينتظر الرجال أن ينتهى المهندسون من فتح الثغرة ، فذلك يعوق اندفاعهم .. انطلقوا يفتحون الثغرات بأجسادهم .. يفتحون طريقا لمرور باقى الرجال .. ورجل يقتفى خطوات رجل .. وتتمزق أجسادهم ولا يتوقف طابور الشهداء الذين اختاروا الشهادة اختيارا .. ويندفع الرجال يمزق قلوبهم الشوق للقتال .. للثأر ..

وفى مواجهة نيران العدو التى تتدفق بجنون من فتحات الدشم لصد الهجوم كانت هناك مواقف أخرى .. اختار الكثير من الرجال أن يسدوا هذه الفتحات بأجسادهم لتتوقف النيران وينجح بعض الرفاق فى الوصول الى العدو المتحصن .. واندفع الكثيرون بقنابلهم اليدوية لمواجهة هذا العدو المتحصن .. لم تمنعهم النيران من التقدم .. واندفعت قاذفات اللهب تحرق أجساد العدو .

وتصورت كل نقطة حصينة أنها فقط هى التى تتعرض للهجوم .. كان تصور كل المواقع الحصينة أنها هى المستهدفة بالهجوم .. واتصلت بقيادتها لابلاغها بالموقف طالبة النجدة .. ولم يمض وقت طويل حتى علمت المواقع الحصينة كلها أنها تهاجم فى نفس الوقت .. وحتى أدركت القيادة الاسرائيلية فى سيناء بقطاعاتها المختلفة حقيقة الموقف ..

وواصلت قوات العدو فى المواقع الحصينة اطلاق نيرانها لايقاف المهاجمين دون جدوى .. سقط لنا شهداء .. ولم يتوقف اندفاع الرجال . كانوا يتقدمون صدورهم مكشوفة لمواجهة الرابضين فى الحصون .. نيرانهم فى أيديهم وبها يواجهون عدوهم .. قلوبهم عامرة بالايمان بالله .

وتدفق مزيد من القوارب فوق سطح مياه القناة ، كانت هذه القوارب تنطلق كالسهام .. لم يكن الرجال وهم يغالبون التيار السريع والمتدفق لمياه القناة يبالون بالاخطار .. كان هدفهم الوصول الى الضفة الأخرى.. وبأسرع ما يمكن .. وكان كل من يصل ، يندفع إلى الشرق لتنفيذ المهمة التى حددت له ..

وامتلأ ميدان المعركة برائحة الدخان والدم والموت .. كما امتلأ بالضجيج والتراب والرمال .. أصوات انفجارات وأزيز طلقات الرصاص وصفير القنابل الساقطة من جوف الطائرات وصيحات العدو الذى لا يعرف كيف يصد الهجوم .

وكان هذا بالضبط ما أرادته القيادة .. أن تغرق مواقع خط بارليف المنيع بموجات متتالية من البشر وعلى امتداد خط المواجهة بالكامل وفى نفس الوقت حتى لا تتاح فرصة لموقع لمساندة موقع آخر .. وحتى تعجز القيادة الاسرائيلية عن نجدة هذه المواقع كلها ..

كانت القيادة المصرية تعرف أن هناك احتياطيات معدة لنجدة المواقع المختلفة وأن هذه المواقع قادرة على التدخل لنجدة بعضها الآخر .. وبهذا التخطيط سيصبح كل موقع جزيرة معزولة محاطة بأمواج بشرية مصرية .. وستواجه القيادة الاسرائيلية فى سيناء كيفية التصرف فى الاحتياطى الموجود لديها ..

وعندما اندفعت هذه الاحتياطيات لصد الهجوم المصرى .. كانت الصواريخ المضادة للدبابات فى انتظارها .. وانفجرت عشرات الدبابات والعربات المدرعة .. واصطدمت الدوريات الاسرائيلية بالكمائن المصرية المعدة للتعامل معها .. ومع الموجات التالية عبرت مجموعات من المشاه تحمل صواريخ « ستوريللا » سام ٧ لحماية القوات التى ستنشىء رؤوس الجسور من التدخل الجوى ..

● أربعة من مقاتلينا كانوا على رأس احدى مجموعات الاقتحام .. كان من الضرورى لهم بعد عبورهم للسيطرة على موقع العدو الحصين.. شل مركز طاقم رشاش كانت دفعاته المستمرة تهدد كل من يقترب منه..

على الفور .. اندفع أحد أبطالنا الى فوهة المركز وسده بجسده العزيز حاميا زملاءه الثلاثة الذين تقدموا بقنابلهم اليدوية واقتحموا المواقع .

● مجموعة أخرى فور عبورها وقضائها على أفراد الموقع الذى كان

من مهمتهم اقتحامه .. لاحظوا أن مجموعة من دبابات العدو تتقدم اليهم .. كان الانقضاض عليها أمرا ضروريا قبل أن تصل اليهم .. قائدهم الشاب اقترح أن يتسللوا اليهـا على شكل طابور : يتقـدم منهم ثلاثة لمواجهتها ، والبقية تسرع لتطويقها من الخلف وضربها بالقنابل .. كانت المشكلة أمام القائد هي كيف يوفق بين رغبات جنوده في أن يكون كل واحد منهم أحد هؤلاء الثلاثة ، على الرغم من معرفتهم جميعا بأن استشهادهم يشبه التأكيد .. وفي لحظة اندفع ثلاثة من الأبطال وواجهوا دبابات العدو ، والبقية اندفعت من الخلف تدمرهم بقنابلها .. وفي لحظات كانت ٧دبابات منها محترقة بمن فيها من أفراد العدو ..

● أبطال موقع آخر .. كان عليهم تطهير المدق أو « الطريق » أمام قول مدرع من قواتنا كان يتقدم لمهاجمة دبابات العدو .

أحد مقاتلي الموقع ألقى بنفسه في حقـل ألغام نشره العدو ليفسـح الطريق أمام القول بدمه ...!

● أحد المقاتلين بعد عبور مجموعته واقتحامها أحد مواقع العدو ، كانت المهمة الموكلة اليه تطهير الموقع ، مما قد يكون به من أفراد أو ألغام أو قنابل . وفاجأته في لحظة دبابة من طراز سنتوريون اسرائيلية .. بكل الثبات والشجاعة واجه الموقف .. اختبأ خلف سـاتر من الرمال حتى أصبحت الدبابة أمامه .. نهض من مكانه وصوب قذيفة الى برجهـا ، فاشتعلت فيهـا النـيران واحترق ثلاثة من أفـرادها . فارق كبير بين الصورتين : العدو الهارب وبطلنا الذى فضل مواجهة العدو الذى يمثل في التقدير العسكرى ١٠ أمثاله ، باعتبار أن الدبابة — تواضعا — تمثل ٦ أفراد آخرين .. فضل مواجهتها وكان بوسعه وهو فرد مشاة ، أن يقذفها بصاروخ من بعيد ويختفى ، ولكنه خشى ألا تصاب في الظلام .. وينكشف أمر اخوانه .

● **بطل آخر** .. بعلما عبر مع زملائه ، كانت مهمته استطلاع المنطقة .. مجموعة من دبابات العدو تقترب منه .. في احدى الحفر المكشـوفة ألقى بنفسه ، ومرت عليه الدبابات .. وظل يلاحقها حتى تأكد من مرورها وعلى الفور قفز من حفرته ، وبمجرد أن دمر الأولى .. كانت البقية في مصيدة زملائه !

● **بطل ثالث** .. كانت مهمته نفس مهمة زميله السابق .. لقد ألقى بنفسه في احدى الحفر ، وبمقدرة فائقة ، اسـتغل فرصة لحظة مرور الدبابة فوقه ، ووضع شحنة من المتفجرات بين جنزيرها .. وتم تدميرها

مئات النماذج .. تختلف صورها .. لكنها فى النهـاية تتفق فى أن أصحابها كان عطاؤهم رائعا حينما فتحوا الطريق أمام نماذج جديدة من اخوانهم رجال الدبابات .

لمـاذا فشلت غارات العدو ؟

ان عملية العبور لم تكن لتنجح لولا الدفاع الجوى والصواريخ التى كانت تغطى المنطقة .. ان مظلة الدفاع الجـوى كانت هى الواقية لكل مابذله المشاة والمدفعية ، والمهندسون من جهد ... لقد كانت هجمات العدو الجوية شديدة متتابعة .. وذلك بالاضافة الى ما قامت به القوات الجوية من ضرب تجمعات العدو التى فى العمق والتى كانت خارج مـدى الصواريخ المضادة للطائرات .

ولقد أصابت غارات العدو طبعا بعض الكبارى .. ولكن نظرا لأن الكبارى العسكرية مصنوعة من قطع متصلة ببعضها البعض فاذا أصيبت احداها بالتلف أمكن تغييرها بقطعة أخرى .. وعملية اصـلاح الكوبرى كانت تستغرق من نصف ساعة الى ساعة فى بعض الحالات ..

ويقول اللواء جمال محمد على مدير سلاح المهندسين(١) .

وراء النجاح العظيم الذى حققته قواتنا المسلحة بقفزتها الباسلة عبر القناة واجتياحها الجارف لخط بارليف كانت جهود المهندسين العسكريين المصريين وكانت ابتكاراتهم الفذة وحلولهم العلمية للمشاكل التى كانت تواجه عبور القوات فوق المـانع المـائى ((قنـاة السويس)) ثم المـانع الآخر المتمثل فى السد الترابى الذى أقامه الاسرائليون بارتفاع ٢٠ مترا من حول خط بارليف .

وقبل ذلك كله كانت هناك جهود المهندسين العسكريين طوال السنوات الست المـاضية من اجل التجهيز الهندسى لمسرح العمليات والذى امتد بطول سواحل مصر دعمـا لسلاحنا البحرى وبطول جبهـة القناة دعما لقواتنا التى كانت تنتظر قرار العبور وبعمق مصر كلها فى المطارات العديدة التى تم تجهيزها فى العمق المصرى تفاديا لضربة مفاجئة من العدو .

● استطاعت ابتـكارات المصريين فى بناء دشم الطـائرات أن تكون نموذجا اخذ به بعد ذلك حلف غرب أوربا ((الاطلنطى)) .

---

(١) جريدة الاهرام ١١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ .

● استطاعت ابتكارات المصريين فى بناء قواعد الصواريخ أن تكون نموذجا عدلت على أساسه أساليب بناء قواعد حلف وارسو .

● استطاع الجهد المصرى أن يقلل المدة الزمنية لبناء كبارى الاقتحام عبر القناة من ٢٤ ساعة الى ٥ ساعات واستطاع المهندسون العسكريون بمعاونة المؤسسات الصناعية فى مصر أن يصنعوا محليا نصف معدات العبور .

● استطاع المهندسون العسكريون بعد تجارب عديدة أن يتغلبوا على مشكلة السد الترابى باستخدام طلمبات المياه التوربينية التى تدفع المياه بمدفع مائى ومن خلال ٣٠٠ تجربة علمية بدأت أولها بمعاونة من المهندس صدقى سليمان أيام كان وزيرا للسد العالى استطاع المهندسون العسكريون أن يصنعوا المفاجآت التى أذهلت العدو .

ويقول العسكريون ولقد كانت ضربات العدو الذى اختل توازنه تطيش ، وكان بعضها يقع على بعد كيلومتر كامل وذلك بسبب أساليبنا التى كنا نتبعها معهم ، فقد كنا نتبع معهم أساليب ايجابية وسلبية فى نفس الوقت وعلى سبيل المثال كنا نقوم بتحريك أماكن الكبارى باستمرار من مكان لآخر . وحيث أن الطيار عندما يكلف بضرب كوبرى فان قيادته تحدد له مكان هذا الكوبرى بناء على استطلاع سابق فانه اذا ذهب الى هذا المكان ولم يجده فمعنى ذلك أنه فشل فى تحقيق مهمته ونجحنا نحن فى خداعه . ولو افترضنا أنه استطاع أن يصل الى الكوبرى قبل أن نقوم بتوليد ستارة كثيفة من الدخان تجعل الرؤية متعذرة بالنسبة اليه وبالتالى لا يستطيع اصابة الهدف . كل هذه اجراءات سلبية . أما الاجراءات الايجابية فهى حراسة هذه الكبارى بالأسلحة المضادة للطائرات واستقبال الطائرة المغيرة بستارة كثيفة من نيران الأسلحة الصغيرة والصواريخ . ونظرا لأن العدو كان يستخدم تكتيكات الهجوم الواطى والواطى جدا عند مهاجمته للكبارى فقد نجح الصاروخ سام ٧ نجاحا باهرا فى اسقاط العديد من الطائرات المغيرة .

لقد فشل العدو فى مقاومة العبور ، وخاب أمل « موشى ديان » الذى صرح بأن العملية سوف يقضى عليها فى يوم واحد ، ولقد بنى رايه على التقديرات الآتية :

(أ) ضرورة فشل المصريين فى العبور نتيجة النيران الكاسحة التى يمكن أن تطلق عليهم من حصون خط بارليف وكذلك السوائل الملتهبة

التى كان يأمل أن تغطى القناة . وبذلك فليس هناك أى أمل فى وصولنا الى الشاطىء الشرقى .

(ب) عدم قدرة المهندسين فى ازالة الساتر الترابى وانشاء الكبارى والمعديات دون تأمين الجانب الشرقى وانه بفرض نجاح المصريين فى اقتحام جزء من القناة فان المهندسين سـوف يحتاجـون الى حوالى ٢٤ ساعة لانشاء هـذه الكبارى وبالتـالى فان الدبابات والأسلحة الثقيلة لن يتم عبورها قبل حوالى ٤٨ ساعة من بدء الهجوم . وكان هذا الوقت يكفى لجلب الاحتياطيات المدرعة من العمق تقوم بتصفية القوات التى نجحت فى انشاء رؤوس كبارى فى الشرق .

وقد أخطأ ديان الحساب عند تقديره لامكانياتنا فى العبور خاصة فى النقط الرئيسية التالية :

١ ـ قدرة المشاة المترجلة على صد الدبابات والطائرات المغيرة التى على ارتفاع منخفض والتشبث بالأرض وحدها ودون أى أسلحة ثقيـلة لمدة طويلة .

٢ ـ كفاءة مهندسينا وقدرتهم فى اقامة الكبارى والمعديات على هذا المـانع فى مدة تتراوح بين ٦ ـ ٩ ساعات .

٣ ـ التنظيم الجيد للعبور والذى وصل الى أن كل ضابط وجندى فى القوات التى تقوم بالعبور أو تقوم بتقديم الدعم له كان يعلم جيداً دوره بالتفصيل والوقت الذى ينفذ فيه هذا الدور بالدقيقة الى الحد الذى جعل عملية العبور تعتبر سيمفونية رائعة يشترك فيها عشرات الألوف من البشر فى وقت واحد .

٤ ـ المفاجأة التى حققتها قواتنا والتى ظهرت نتائجها بوضوح فى الأيام الأولى للمعركة حيث كانت جميع تصرفات العدو تتسم بعدم التنسيق والارتجال لمدة يومين على الأقل .

٥ ـ العقيدة والاصرار الذى كان يقاتل بها جنودنا البواسل .

فقـد كان كل ضابط وجنـدى يعلم جيـداً أنه يدافع عن شرف مصر وشرف العروبة الذى لطخته أحداث ٥ يونيو ١٩٦٧ ظلما بالتراب . وكان يحاول أن يسترد أرضه ويسـتعيد كرامته وعزته بينما كان الجنـدى الاسرائيلى يقاتل دون هدف واضح مقنع . هل وضـع ديان فى حسابه الأثر المعنوى الذى يحدثه عشرات الألوف وهى تعبر القناة وتصيح فى وقت واحد الله أكبر ؟؟ لا أعتقد أنه أدخل ذلك فى حساباته .

النتائج :

واجاب الفريق اول احمد اسماعيل على سؤال للأستاذ محمد حسنين هيكل عن نتائج حرب ٦ أكتوبر الايجابية قال :

هناك نتائج محققة ، وهذه النتائج يمكن تقسيمها الى مجموعات مختلفة .

● **هناك مجموعة من النتائج العسكرية أعدها كما يلى :**

١ — لقد زالت خرافة الجندى الاسرائيلى بعد أن كادت تثبت فى بعض الأذهان بطريقة خطيرة .

لقد وجدناه جنديا عاديا ... درب تدريبا حسنا عزز من قدرته القتالية ، وهذا هو كل شيء ... اى أنه فى مقدور جندى آخر غيره درب تدريبا حسنا يعزز قدرته القتالية أن يتصدى له وأن يهزمه .

٢ — لقد ثبت أمامى أن الجندى المصرى من أشجع الجنود واصلبهم فى العالم ، ويكفيه صبره وجسارته ... ولقد مرت علينا أيام كان لنا فيها جنود يعيشون على نصف التعيين المقرر لغذائهم ، ولكن استعدادهم للقتال لم يتأثر .

هناك ضمانات يجب أن نعطيها للجندى المصرى لكى نأخذ منه احسن ما عنده : تدريب جيد ، سلاح يثق فيه ، ضابط يشعر به .
هذا هو كل شيء .

٣ — ان أى عمل يحسن التخطيط له علميا ، ويحسن التدريب عليه عمليا قابل للنجاح بنسبة مائة فى المائة .

٤ — هناك دروس أخرى مستفادة ، فى نواح فنية ، ولا اظنها مما يهم الناس بصفة عامة ، وانما هى تهم القوات المسلحة بصفة خاصة .

● **انتقل بعد ذلك الى مجموعة أخرى من النتائج ... مجموعة من الاستراتيجية وأعدها كما يلى :**

١ — لقد كسرنا الجمود الذى كان يحيط بأزمة الشرق الأوسط .

٢ — لقد غيرنا صورتنا امام العالم كله ، وبعد أن كان يظننا جثة

هامدة ، فلقد رآنا قادرين على الحركة ... قادرين على القتال ... قادرين على الانتصار ، ولم تتغير صورة مصر وحدها أمام العالم ، ولكن تغيرت صورة الأمة العربية كلها .

٣ ــ لقد أثبتنا لاسرائيل أن «منطقها فى الحدود الآمنة منطق مضروب .

لم تكن قناة السويس مانعا كافيا أمام ارادة مصممة .
ولم يكن خط بارليف عائقا كافيا أمام استعداد للتضحية .
واذن فان على اسرائيل أن تبحث عن منطق آخر فى الأمن .

وفوق ذلك ، فان اسرائيل فى أى منطق الآن تحاول العثور عليه ، لا بد لها أن تعرف أن أمامها فى مصر عدوا يتحتم عليها أن تحسب حسابه ، بل أقول وعليها أن ترهبه .

٤ ــ أن الحرب أثبتت بطريقة قاطعة أن شرم الشيخ ليست لها الأهمية الكبرى التى كانت اسرائيل تظنها وتبنى عليها مطامعها فى سيناء .

ان شرم الشيخ لم تعد مفتاح ايلات ، وانما نزل المفتاح الى أقصى الجنوب عندما اكتشفنا استراتيجية عربية للبحر الأحمر قررنا بمقتضاها قفل باب المندب » .

ويلخص اللواء سعد مأمون مساعد وزير الحربية ما حققته حرب أكتوبر فيما يلى (١) :

ان القوات المصرية ، كما قال الرئيس أنور السادات ، قامت بمعجزة على اى مقياس عسكرى ، وأن التاريخ العسكرى سوف يتوقف طويلا أمام عملية اليوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، ولقد أثبتت هذه الحرب بالدليل القاطع خطأ نظرية الحدود الآمنة المستندة الى أقوى التجهيزات العسكرية والموانع الطبيعية ، واضطر وزير الجيش الأمريكى يوم ١٨ أكتوبر الى الاعتراف بأن عبور القوات المصرية لقناة السويس هى علامة بارزة فى الحرب الحديثة سوف تغير الاستراتيجية العسكرية ، والواقع أنه لأول مرة فى التاريخ العسكرى الحديث تتمكن قوة عسكرية من انجاز عملية عبور ضخمة لقناة السويس فى مواجهة عدو اسرائيلى مزود بطيران حديث ، دون أن تفقد القوات المصرية التى عبرت أية طائرة من طائراتها.

---

(١) جريدة الاهرام ١١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ .

الفصل الرابع

التربية فى خدمة المعركة وردع الحركات العدوانية

ان المعركة بين العرب والمؤسسة العسكرية الصهيونية ليست حربا بين جيشين فقط وليست حربا بين جبهتين عسكريتين فقط ، وانما هى حرب بين مجتمعين تتلاحم فيها الجبهة الداخلية بجبهة المواجهة ، حرب بين مجتمعين بكل ما تتضمنه كلمة مجتمع من نظم اجتماعية سياسية واقتصادية وتربوية وقانونية ، وقدرة المقاتل لا تتحدد فقط بنوعية السلاح الذى يحمله ، وانما تتحدد بتربيته وتدريبه وروحه المعنوية وصلابة الجبهة الداخلية ونوعية القيادة واطمئنان المقاتل الى اخلاصها وحكمتها ودقة تخطيطها .

القضية فى جوهرها ليست قضية جماعات عانت من الاضطهاد تبحث لها عن مرفأ أمان ، وليست القضية قضية حدود آمنة تستقر فيها هذه الجماعات المضطهدة ، فالأمر أكبر من هذا وأخطر ، فالحركة الصهيونية فى الواقع حركة عدوانية تبغى التوسع والسيطرة على الأرض العربية وطرد العرب الى الصحراء ، ومن ثم فهو صراع أقدار وصدام مصائر ، اما أن نوقف هذا المد الصهيونى العدوانى ونردعه ونقلم أظافره ونقطع «يده الطويلة» واما .. لا قدر الله . القضية قضية وجود أو لا وجود ، نكون نحن العرب أو لا نكون ، ولكن ، ان بعد العسر يسرا ، وان بعد الضيق فرجا ، وفى ظلام اليأس سطح النور ، وكانت حرب ردع هذه الحركة العدوانية ، وكان ذلك فى يوم السادس من أكتوبر الموافق العاشر من رمضان المبارك ، ولقننا الصهيونية درسا كان لا بد منه ليبدأ حديث السلام .

واليوم يبرز أمام التربية والمؤسسات التربوية دور جديد يجب أن نضطلع به ؟ ما هو دور التربية فى معركة التحدى بيننا وبين الحركة الصهيونية العدوانية . ان الحرب تقدم مشكلات وتعقيدات جديدة ، غالبا ما تفشل الطرق القديمة فى حلها ، وقد ظهر ذلك واضحا فى حرب أكتوبر فقد ثبت أن القوات المسلحة العربية استخدمت تكتيكات جديدة فى التدريب والاعداد ، بل وحتى نوعية المقاتل المشترك فيها ، والتسلح بسلاح العلم ، ومن ثم رأينا مقدرتها القتالية ، ان الحرب الحديثة لم تعد تكتفى بمهارات مثل قيادة السيارات المصفحة والدبابات والطائرات

واستخدام البنادق والرشاشات والخبرة الميكانيكية البسيطة . ولكن الحرب الحديثة تتطلب تنمية مهارات جديدة ، وقدرة متزايدة على التقدم التكنولوجى .

هذا التغير الذى حدث فى القطاع العسكرى وأدى الى النجاح فى القدرة القتالية ، ينبغى أن يحدث تغير مماثل له فى القطاع المدنى ، وهنا يأتى دور التربية والمؤسسات التربوية ورجال التربية والدراسات الانسانية والاجتماعية بوجه خاص . لا بد من تعلم عادات جديدة ونبذ العادات القديمة التى لم تعد تتفق والمرحلة الحالية التى نعيشها والتى تعرقل سيرة التقدم والنضال . يجب تكوين عادات جديدة ننطلق بها نحو مزيد من الانتصارات ومزيد من التعمير والبناء ، ينبغى تعلم عادات جديدة تتفق وظروفنا الجديدة ، ينبغى أن نتعلم وأن نكون عادات تقوم على حوافز مثل تحمل المسئولية الاحساس بالواجب والجدية وحب الوطن وكراهية العدو ، وتتوقف قوة هذه الحوافز على تكوين عادات قوية مدعمة تكون معالم على طريق نضالنا ونهضتنا ، وحماسنا للدفاع عن أمتنا العربية .

وينبغى أن نبرز هذه الحوافز وأن نلح عليها ، وأن نستفيد فى ذلك من كل خبرات الشعوب المختلفة فى هذا الصدد ، حتى من خبرة عدونا ، ولا يجب أن ننسى أن كل طاقة العدو موجهة نحو ذلك ، حتى أوراق اللعب نجد عليها صور قادة الصهيونية وأعلامهم أمثال « هرتزل » « وبن جوريون » وغيرهم ، حتى حدائق الحيوان فى القدس ، نجد فيها جزءا خاصا للحيوانات التى تشرفت بورود اسمها فى الكتاب المقدس ، والتوراة ، ونجد أمامها عبارات : تنزه ، تعلم ، تذكر ...

ان الدعوة الى تعلم عادات واتجاهات وقيم ومعارف جديدة ، لايعنى أن نهجر كلية كل ما تعلمناه ، فالكثير من الاتجاهات والمهارات والمعارف التى تعد وتعبأ للحرب قد تعلمها الناس أثناء السلم ومن أجل الأغراض السلمية ، فعلى سبيل المثال يتعلم كثير من الناس كراهية المجرمين واللصوص وقطاع الطرق والنشالين ، هذه الاتجاهات تصلح للاستخدام ضد الأعداء الخارجيين ضد الصهيونيين الذين لا يقلون عن هؤلاء ، وهذا لا يحول بطبيعة الحال دون تعلم مهارات واتجاهات وعادات جديدة من أجل معركة التحدى . ان الدول التى لا تعد ولا تعلم للحرب والقتال تجد نفسها عاجزة عندما يجد الجد وتفاجأ بالهجوم عليها كما حدث لنا فى عامى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ بوجه خاص . قد يكون أمرا سيئا أن تؤخذ دولة دون أن تستعد الاستعداد الحربى الكافى ، ولكن الأمر يبدو أشد سوءا أن يكون هذا النقص فى المهارات الأساسية والاتجاهات الاجتماعية .

وسوف نلح بالأهمية فى هذه العجالة ، على تعلم بعض الاتجاهات الاجتماعية المعينة التى نرى أهميتها وضرورتها لنكون على مستوى المعركة .

تعلم حب الوطن والدفاع عنه :

يتعلم الانسان حب وطنه بنفس الطريقة العامة المتضمنة فى تعلم الانسان حب بيته ، وان كان حب الوطن أكثر صعوبة الى حد ما ، حيث أن الانسان وخاصة فى مراحل طفولته ، يكون عادة له اتصالات وخبرات أولية مع بيته أكثر من التى مع وطنه ككل . وتمثل عادات الحب الى حد كبير ، استجابات شرطية Conditioned مع المواقف المثيرة الموجودة والفعالة فى ذلك الوقت الذى يلقى فيه الطفل اثابة أفضل فى الطعام والشراب والراحة والحماية الوالدية والتخلص من الألم . ويحدث حب الوطن أساسا بالربط بين الرموز التى يمثلها الوطن ، بالعديد من الاستجابات التى تخفض الألم وتبعد القلق وتشبع رغبات ومطالب الفرد.

وتعمل الحكومة على كسب ولاء الشعب بعدة طرق تتمثل فى عملية الاشراط الانفعالى مع رموز وشعارات الدولة مثل العلم والسلام الجمهورى ومضاعفة الدخل القومى واسترداد الأرض المحتلة وردع الحركة الصهيونية التى تطمع فى أرضنا ، والوحدة الوطنية والعربية وغير ذلك .

وهذه الرموز والشعارات ترتبط بأنواع من الاشباعات والارضاءات لحاجات الانسان الجسمية والاجتماعية . ويتوقف عمق حب الوطن على قوة الارتباطات بين أشكال متنوعة وفيرة من المثيرات والاستجابات التى تحدث والتى كان من شأنها اشباع عدد كبير من حاجات الانسان ورغباته .

وتعمل المدرسة على احداث هذه الارتباطات باشراط استجابات حب التلميذ مع الرموز القومية . واذا ربط باستمرار بين تحية العلم والسلام الجمهورى ، وبين الخبرات التى تقابل حاجات التلميذ وتشبع مطالبه ورغباته ، فانه سيكتسب عندئذ القوة لاستثارة انواع الاستجابات التى تخفض الحوافز . وان تكرار تحية مصر فى الصباح مع تحية العلم ، حتى على مستوى المعاهد العليا والجامعات ، من شأنه تقديم مثير شرطى يثير فى كل فرد استجابات الولاء للوطن . وكذلك يجب أن تكون المقررات القومية والتربية الوطنية فى صورة تبين للطلاب والتلاميذ الانجازات التى قامت بها الدولة بمؤسساتها المختلفة نحو تحقيق أهداف الشعب ، وأن تبين

له مصـــادر الخطر التى تهدده وكيف يمكن مواجهتها والتغلب عليهــا ، واحداث حرب أكتوبر وكل ما يتعلق بها من بطولات وأن يجند كل كتابنا من أجل ذلك .

وبالاضافة الى الاشراط الانفعالى مع الرموز القومية يمكن أن يكتسب حب الوطن نتيجة التعميم . فالشخص الذى يحب بيته ومجتمعه المحلى قد يوسع دائرة هذا الحب حتى يشمل الوطن كله ، لأنه تعلم أن وطنــه هو الذى ييسر ويهيىء بصورة ما ، كل ما يستمتع به فى بيته وفى مجتمعه. ويمكن توضيح ذلك بمثال من خبرتنا العادية ، فاذا كنا نحب احدى مدن جمهورية مصر العربية لأنه أتيح لنا فيها قدر كبير من الخبرات الطيبة فى جزء محدود منها فاننا يمكن أن نعمم هذا الحب على الوطن كله . ولا أذهب بعيدا ، فأبنائى بعد مضى أكثر من خمس سنوات على عودتنا من نيجيريا، لا زالوا يحملون ذكرى عطرة لها ، وينفعلون اذا سمعوا اسمها ، ويتتبعون أخبارها ، وهم الذين لم يروا سوى مدينة واحدة فى شمالها ، كل ذلك لأنهم وجدوا فيها قدرا كبيرا من الخبرات السارة . ويتضح من ذلك أنه يمكن أن يحدث تعميم من البيت الى الحى الى المدينة الى الدولة ، بل الى الأمة كلها .

واذا حدث اشراط بالرموز ذات الصبغة الانفعالية والتى تثير المشاعر الحماسية فان ذلك يتطلب نوعا من التوقعات ، كما كان الشعب فى مصر يتساءل دائما ، متى نبدأ فى اذالة أثار العدوان وردع الصهيونية المعتدية.

ولم تكن معجزة العبور واقتحام خط بارليف فى هذه الساعات القلائل الا لخفض القلق المختزن طوال سنوات الانتظار ، وما كانت كل دعايات العــدو عن خط بارليف وتحصــيناته وأسطورة الجيش الذى لا يقهــر والتفوق الجوى وغير ذلك يمكن أن تصدر استجابات تبعث فينا الخوف والتردد والاحجام .

ما الذى يمكن أن يثير مشاعر الحمــاس لدى التلاميــذ ؟ ان رؤية « العلم » يرفرف فوق صارى المدرسة او الكلية او فى ميدان ، أو رؤيته مصورا فى كتاب ، لا يثير بالضرورة مشاعر الحماس . ولكن هذه المشاعر تنتج بتدبير وتخطيط . فما هو هذا التدبير والتخطيط ؟ ان هذا المشاعر تثار اذا صاحب رفع العلم موسيقى عسكرية ، أو صــور أبطـالنا وهم يرفعون العلم فوق أرض سيناء . ولكن ما هى الاستجابات التى تثيرها مثل هذه الأشياء ؟ لا شك أن هذه الاستجابات تختلط بالمشاعر المتضمنة قدرا معينا من القلق ، ويماثل مضمون الاستعراض العسكرى الحرب الى حد ما ، والحرب تعنى الخوف والرعب والكراهية ، ومن ثم يأتى

العلم رمزا للأمن والطمأنينة ، ويأتى العلم فوق رمال سيناء رمزا لانتصار ارادة الصمود العربى وعبور اليأس والهزيمة ، ومن ثم فان رؤية العلم تخفض القلق ، وتجعل التلاميذ يشعرون بالزهو والحماس .

ويمكن التعرف على مشاعر حب الوطن عندما يكون الفرد خارج البلاد أو عندما يعود الى وطنه بعد غياب طويل ، وكذلك عندما يتهدد الوطن أى خطر . وعندما ينتصر الجيش فى معارك يستعيد بها كرامة الوطن وتنجح الحكومة فى صد وردع الحركات العدوانية التى تهدد الشعب ، فان عادة حب الوطن تقوى وتعزز .

ومن الملاحظات العامة أن عادة حب الوطن تقوى وتزداد عندما يبذل الفرد ويضحى بروحه وماله من أجل الدفاع عن وطنه والزود عن حياضه ، وكلما ازداد هذا العطاء كلما ازداد الحب — بافتراض أن هذا العطاء تلقائى ويرضى الفرد — ويفسر ذلك بأن المجهود المبذول يقوى عادات الحب لأنه يشبع حاجة أساسية لديه ، ومن ثم يحصل الفرد على نوع من الاثابة تدعم الحب وتقويه .

وعندما تدعم عادات الحب وتستقر ، فانها تعمل بصفة آلية بحتة وتستمر نتيجة تعزيزات ثانوية لاحقة . وعادة حب الوطن ، مثلها مثل اى عادة ، تنطفىء بمرور الزمن ، الا اذا عززت ، ولكنه ليس ضروريا بطبيعة الحال ، أن يخفض الحافز فى كل مرة تحدث فيها استجابة الحب . وكلما قويت عادات حب الوطن ، كلما زادت الكراهية نحو العدو الذى يهدده ، وكلما زادت الرغبة فى الدفاع عنه والتضحية من أجله .

تعلم كراهية العدو والحض على قتاله :

قبل أن نتكلم عن القتال والعدوان والكراهية يجب أن نوضح ما نقصده بذلك ، لأن هذا يلقى الضوء على طبيعة الحركة الصهيونية العدوانية ، والآن ، ماذا نعنى بكلمة القتال ، ان القتال بين الأطفال الصغار يكون عادة باستخدام الأسنان والأظافر أو بالركل بالأرجل واللكم بالأيدى وجذب الشعر ، وعندما يتدرج الاطفال فى النمو فانهم يتعلمون استخدام الكلمات والتكتل فى جماعات للقتال ، ويأخذ القتال صورا واشكالا متنوعة . ولا يقتصر هذا التنوع على ما يستخدم من أسلحة ، ولكنه يكون أيضا فى عدد المشتركين فيه ، وفيما يكون عليه من تنظيم ، والوقت الذى يستغرقه ، والهدف الذى يرمى اليه ، والقواعد التى تتبع فيه ، وليست الحرب سوى صورة شديدة التنظيم من صور القتال الذى يشترك فيه

عدد كبير من الأفراد مسلحين بأشد الأسلحة فتكا وتدميرا دون مراعاة أية قواعد .

وهناك على الأقل ، عنصر واحد عام فى كل أنواع القتال ، هو الرغبة فى تدمير الخصم وتحطيمه والحاق الضرر به ، ونجد هذا حتى فى صور القتال التى تخلو من العداوة كالملاكمة ، فالملاكم يعمل على النيل من خصمه بدنيا ومعنويا ، ومهما تكن الدوافع التى تكمن وراء القتال ، وأيا كان جمود القواعد التى تحكمه ، فهو نوع من النشاط لحل مشكلة قائمة بصورة مؤقتة على الأقل ، وذلك بانتصار فرد على آخر أو جماعة على أخرى ، والمهارات الأساسية فى القتال هى ببساطة القدرة على أداء الأعمال المناسبة للنوع الخاص من القتال الذى يخوضه الفرد .

دعنا نمعن النظر فى طريقة اكتساب الأطفال لهذه المهارات الأساسية ، اذا حال شخص بين طفل تعود حرية تحريك يديه وقدميه وبين حرية الحركة هذه ، بأن نقيدهما مثلا ، فان الطفل يصرخ ويتلوى ، بل قد يركل أو يعض هذا الشخص ، فاذا نجح فى تخليص نفسه بأحد هذه الحركات العدوانية ، فان هذا اللون من النشاط سيعزز ، وبتكرار هذه الخبرة تنحو هذه الأفعال لأن تصبح عادات .

وقد يكون الطفل عارفا بأن عضه يؤلم الشخص الذى عاقه عن الحركة ، وقد يكون غير عارف بذلك ، كما قد يكون غير مدرك أن الاستجابة اللفظية « آه » تعنى أنه قد تألم ، وهنا سيكتشف ذلك اذا حدث وعض هو نفسه أو عضه شخص أو حيوان آخر ، وسيتعلم أيضا أن ذلك سيجعله يصرخ باستجابة لفظية معينة . وهكذا عن طريق عملية تعلم معقدة يتعلم الطفل أن عضه يؤلم الناس الآخرين ، ويمكن عن طريق نفس العملية — وان يكن تحت ظروف أخرى — أن يتعلم طرقا أكثر فاعلية لالحاق الالم بالآخرين ، فمثلا عندما يسمع والدته تقول انها متألمة من شقاوته أو ألفاظه النابية أو رفضه تناول طعامه فسيعرف بتكرار ارتباطه هذه الافعال بكلمة « الالم » أن هناك طرقا متعددة يؤلم بها أمه ، وهكذا يضيف الى جعبته مزيدا من الاسلحة ، وقد تدفع ظروف بيئية معينة طفلا الى أن يتعلم انه لن يحصل على ما يرضيه الا اذا آلم أبويه أو الآخرين .

ويكرر الفرد الطريقة التى نجحت فى موقف معين ، فى المواقف المشابهة — برغم أنها قد تكون مختلفة — فى أوجه عديدة ، واذا تحقق من نجاحها فى ميدان معين فانها تنتشر الى ميادين أخرى ، وتسمى هذه العملية عملية التعميم ، ولكنها تختبر وتمتحن من حين الى آخر بالعملية المضادة التى يطلق عليها عملية التخصيص أو التمييز ، فالطفل الذى تعلم أن

يحصل على مايريد بايلام امه ومضايقتها ، فانه يتبع هذه الطريقة مع الاخرين ، ولكنه عندما يجد أنها لا تفشل فقط فى تلبية مطالبه ، بل انها قد تتسبب فى ايلامه كذلك ، فانه يتعلم أن يميز ويفرق عند استخدامه لهذه الطرق المؤلمة — التى حققت له قبل ذلك نجاحا — بين الناس بعضهم بعضا ، بل يعرف متى وأين يستخدم هذه الطرق ، فقد يعرف مثلا أن الطرق تحقق نجاحا أكثر مع من يصغرونه سنا أو حجما ولا تنجح مع من يكبرونه سنا أو حجما ، أو مع الاشد قوة ، أو قد تكون أكثر نجاحا عندما يكون فى جماعة من أصدقائه أو اخوته عما لو كان بمفرده .

القتال العدوانى والقتال دفاعا عن النفس :

ومهما يكن من أمر ، فهناك حالة خاصة يكون سلوك الفرد لايلام الآخرين والحاق الأذى بهم ، مفيدا الى حد كبير ، وذلك عندما يقع على الفرد عدوان أو يلحقه أذى أو تهديد ، فهنا يجد المرء نفسه فى موقف قتال . وقد يعرف القتال بأنه موقف يقابل فيه الشر بالشر ، والعدوان بالعدوان ، والتدمير بالتدمير ، فالعين بالعين ، والسن بالسن ، والبادى أظلم ، ويحدث القتال عندما يحاول فرد أو جماعة من الافراد ايقاععقاب على فرد آخر أو على جماعة أخرى لسبب من الاسباب ، وتتلمس الجماعة المعتدى عليها مهربا من هذا العدوان وترد الهجوم بهجوم مضاد والجماعة الاولى جماعة معتدية والجماعة الثانية جماعة مدافعة ، والشخص العدوانى هو الذى تعلم ان افضل الطرق للحصول على ما يبتغيه يكون بايذاء وايلام من يعارضون رغباته ، أو يحولون بينه وبين ما يبتغيه . والشخص المدافع هو من تعلم ان افضل الطرق للتعامل مع الشخص العدوانى هو أن يعاقبه مباشرة ، أو أن يدفع شخصا آخر الى معاقبته ، ويتوقف اتخاذ الفرد (أو الجماعة) موقف قتال عدوانى أو دفاعى ، على التعلم الاجتماعى وعلى الظروف التى يوجد فيها . وفى الوقت الحالى ، يحرم العدوان بوجه عام ، ولكن يسمح به دفاعا عن النفس ، ودفاعا عن المجتمع ، وردعا للحركات العدوانية .

العدوان والسلوك العدوانى :

والآن ماذا نقصد بالعدوان ولماذا يحدث ، وما هى انواع السلوك العدوانى ؟

لوحظ فى أغلب المجتمعات أن هناك علاقة وثيقة بين السلوك العدوانى والاحباط ، الامر الذى أدى الى وضع هذا الفرض « بتمخض الاحباط عن انواع مختلفة من الاستجابات ، والعدوان هو احد هذه الاستجابات»

ويشير الاحباط كما يستخدم هنا ، الى المواقف التى يلقى فيها الفرد عرقلة أو اعاقة أو تعطيلا أو معارضة تحول بينه وبين هدفه أو عمله على اشباع حاجة من حاجاته . وأحد المواقف النمطية المحبطة هو وجود عائق يحول بين الفرد والهدف الذى يسعى اليه ، أو عندما يحال بين الفرد والعمل الذى ألفه وتعود عليه ، فالطفل الذى تقيد حركاته الطليقة يمكن أن يقال انه لقى احباطا .

ويأخذ العدوان صورا عديدة ، فالشخص الذى لقى احباطا قد يهاجم المصدر الذى سبب له الاحباط ، ويسمى ذلك بالعدوان الظاهر المباشر . وقد يأخذ العدوان صورة السب أو الاهانة أو التنابذ بالالقاب أو التهديد ، ويطلق على هذا العدوان ، العدوا ناللفظى الظاهر المباشر. وأحيانا قد يسب الانسان الشخص الذى اعاقه أو تسبب فى احباطه فى سريرته أى بينه وبين نفسه ، أو يتمنى له الضرر والاذى ، وهذا هو العدوان غير الظاهر ، وأحيانا أخرى قد يتسبب الانسان فى ايذاءالشخص الذى تسبب فى احباطه دون أن يقصد الى ذلك ، ويسمى ذلك « العدوان اللاشعورى » . وهكذا يمكن القول ان الفرد يكون عدوانيا نحو المصدر الذى تسببه فى احباطه ، وذلك بالقول والفعل والشعور واللاشعور ، وتسمى كل صور العدوان هذه « العدوان المباشر » .

على أن ذلك لا يستنفد كل احتمالات السلوك العدوانى ، فقد لايوجه الشخص المحبط عدوانه الى المصدر الذى تسبب فى احباطه ، ولكنه يوجهه الى مصدر آخر ، ويطلق على هذا النوع من العدوان « العدوان غير المباشر » أو « العدوان المخول » وقد يأخذ هذا العدوان أى صورة من صور العدوان المباشر .

وما زالت هناك صورة أخرى للعدوان ، وهى العدوان الذى يرد الى الذات ، وذلك عندما لا يستطيع الانسان أن يرده الى مصدر العدوان أو يحوله الى مصدر آخر .

والسلوك العدوانى سلوك متعلم ، فالمواقف الاحباطية التى يتعلمها الفرد فى حياته متعددة متباينة ، ويكتسب الفرد لكل موقف من هذه المواقف أشكالا مختلفة من الاستجابات العدوانية تظهر فى سلوك الفرد بعد ذلك فى الوقت المناسب ، وتتعزز هذه الاستجابات بما يلقاه الفرد من نجاح عند استخدامها . وبذلك يمكن أن نفهم لماذا يصبح بعض الاشخاص عدوانيين تماما فى سلوكهم ، فمثل هؤلاء الافراد قد وجدوا أنهم باتخاذ هجوم مباشر محدد على كل من يحول بينهم وبين هدفهم

يحرزون النجاح ويحققون أهدافهم ، ودون أن يلحق بهم عقاب كبير ، وبذلك تتكون عادة العدوان سواء عند فرد أو جماعة .

تعلم كراهية العدو :

قلنا ان الموقف النمطى الذى يثير العدوان ، هو الذى يحبط فيه النشاط الذى يؤدى الى اشباع الفرد لدوافعه الاولية والثانوية ، ويمكننا ان نشير الآن إلى أن المواقف الاحباطية تثير أيضا مشاعر الغضب ، ويتعدل الغضب الى حد كبير ، ويأخذ فى النهاية صورة الكراهية والحقد وغير ذلك من مشاعر العداوة . وتؤدى الكراهية وظيفة هامة وهى أنها تعطى السلوك دافعية أكبر ، ومن ثم فهى تفيد فى عمليات القتال والتصدى للحركات العدوانية .

ويجب أن تعمل المؤسسات التربوية على تعليم التلاميذ كراهية العدو ، وذلك بتوعيتهم بنواياه ومقاصده ، وكشف طبيعة الحركة الصهيونية العدوانية ، وبيان جرائم العدو الوحشية على الامنين والعزل من السلاح ، مثل جريمة بحر البقر ، وضرب القرى والمدن بالنابالم وأنواع القنابل المحرمة دوليا ، وكذلك قصص التعذيب الوحشى للمواطنين الابرياء . ولا بد أن نستخدم كل الوسائل فى هذه التوعية ، الكلمة المكتوبة والصور العديدة والافلام السينمائية وغيرها .

تنمية الاحساس بالواجب :

يظهر الفيلسوف الالمانى « كانط » الواجب فى صورة أمر مطلق غير مشروط ، لا يقوم بصدده لبس مهما اختلف فحواه : اخدم وطنك ، قاتل العدو ، لا تسرق .

والواجب لا يمكن أن يكون مشروطا ، لان الاوامر المشروطة لا تقضى بالقيام بالفعل لذات الفعل وانما لنتيجة يمكن الحصول عليها منه ، أى أنها أوامر نفعية ، أما الامر بالواجب فهو فى ذات الفعل وليس فى النتيجة وكذلك فان الاوامر المشروطة لا تحمل صفة الضرورة ، بل انها تجعل الفعل محتمل الوقوع ، أما الامر المطلق فيرفض جميع الافعال الا فعلا واحدا يقتضى القيام به (١) .

اننا ونحن نجتاز أدق مرحلة من مراحل تاريخنا ، ينبغى أن نكرس

---

(١) الدكتور نجيب بلدى : محاضرات فى فلسفة الاخلاق . (غير منشورة) .

كل الجهود لاثارة دافعية المواطنين للاحساس بالواجب ، ليس توقعا لثواب ، أو خوفا من عقاب ، كما يقول « كانط » وانما الجزاء فى العمل ذاته ، وفى راحة الضمير . فالضمير الحى اليقظ هو الذى يجعل الفرد يشعر بأن من واجبه ، أن يخدم وطنه وان يضحى فى سبيله بكل مرتخص وغال .

هذا الضمير ليس جزءا من التكوين البيولوجى للانسان ، وانما هو نتاج التعلم . ويجب أن تعمل كل المؤسسات التربوية على تكوين الضمير الحى اليقظ ، هذا الضمير الذى اذا وضع موضع الاختيار بين القيام بالواجبات الاجتماعية وبين الرغبة فى اللذة الانانية ، اختار جانب الواجبات الاجتماعية .

وترتبط القوى الدافعية للضمير بالقلق ، فالفرد الذى يفشل فى القيام بمسئوليته الاجتماعية ، أو الذى يسلك بصورة تستحق اللوم يعانى من تأنيب الضمير والاحساس بالذنب ، اى بقلق وبشعور غير مريح ، هذا القلق ، وهذا الشعور غير المريح يحرص الانسان عادة على تجنبه . بينما الاحساس بالواجب ، والقيام بما يمليه عليه هذا الواجب يجعل الانسان يحس بالراحة والسرور ، وينظر الى الحياة بابتهاج ، بل انه ينام ملء جفونه . ويدل ذلك على أن قيام الانسان بواجبه يخفض القلق ، والفشل فى أداء الواجب يزيد من القلق .

وينبغى أن تساعد الدولة المؤسسات التربوية فى عملها من اجل تكوين هذا الضمير لدى التلاميذ والطلاب ، بل المواطنين كلهم بوجه عام ، وذلك باتباع القادة انفسهم فى أى موقع من مواقع العمل لاحكام الواجب كما ذكرناها وللقوانين الاخلاقية ، وأن تحرص المؤسسات الثقافية والاعلامية والترفيهية على اظهار كل ما هو فاضل شريف مخلص فى الانسان ، وتنأى عن الاثارة والبلبلة والهدم ، من أجل مغنم مادى فتربح المؤسسة ويخرب الانسان . ولا ينبغى أن تسمح الدولة لاى فرد مهما كان ان يخرج على القانون من اجل أغراضه الانانية ومصلحته الشخصية محتميا بمنصب أو جاه . « والله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها » . صدق رسول الله .

تعلم الولاء للقيادات :

يتطلب كل عمل جماعى من « القادة » النظر والتخطيط والتوجيه ، ومن « الاتباع » التنفيذ . ولا يمكن أن ندعى أن أية جماعة تنقسم الى مجموعتين ـ القادة والاتباع ، لان كل الاشخاص يكونون قادة فى بعض

الاحيان واتباعا فى أحيان اخرى . وعادة ، يكون الفرد قائدا فى المواقف التى تكون فيها معرفته ومهارته على قدر كبير من الامتياز يعرفه عنه الآخرون . وقد يعمل نفس هذا القائد كتابع فى مواقف أخرى ، حيث يكون هناك أشخاص أكثر امتيازا منه وكثر بمعرفة ومهارة فى هـذا الموقف .

ويتضمن تعلم القيادة أساسا ، اكتساب معرفـة أكبر بالمجتمع الانسانى والتفاعلات الاجتماعية ومطالب وحاجات الناس الذين يعيشون فيه ، والمجتمع على اية حال ، شديد التعقيد الى درجة لا يستطيع فرد واحد أن يكون متفوقا متميزا فى كل ألوان النشاط السائدة فيه . وفى المجتمعات المتحضرة توجد ميادين عديدة للمعرفة والوان النشاط ، نجد فى كل منها قادة يسيرون نشاطها ويتبعهم الآخرون ويقلدونهم ويلتمسون منهم النصح ، وذلك لانهم أكبر سنا ، أو اعلى مكانة ، أو أكثر ذكاء ، او أكثر مهارة .

والواقع ، أن تعلم اختيار الاشخاص الجديرين بأن يتبعهم الآخرون وان يقلدوهم ، يتضمن اكتساب نظام معقد من العادات الاجتماعية يدخل فيه تعلم طاعة الاوامر ، وتقليد السلوك والتماس النصح ، واداء دور معين تحت قيادة شخص معين .

وتعلم طاعة الاوامر ترسى أسسها وتوضع لبناتها فى البيت ، فيتعلم الاطفال اداء مئات من الاعمال اليومية استجابة لاوامر تتعلق بالطعام والشراب والذهاب للنوم والاستيقاظ وارتداء الملابس وغيرها . وعندما يتأمل الطفل فى أنواع الثواب التى يحصل عليهانتيجة طاعة الاوامر وانواع العقاب التى توقع عليه عند عصيان الاوامر ، فانه يكون عادات خاصة بالطاعة تنميها المدرسة بعد ذلك .

وفيما يتعلق بالتقليد والمحاكاة ، فان التابع يعرف ان القائد يعلم الامور أكثر منه ، ويتعلم من الخبرة والممارسة ، انه يمكن أن يحصل على اثابة أكبر وعقاب أقل من اتباع القائد ومحاكاة سلوكه ، ونحن نتعلم من الخبرة أن بعض القادة يكون لهم اعتبار كبير لدينا حتى ان مجرد مشاهدتهم تعد أمرا مريحا ، وعندما يكون المرء فى موقف جديد لا يعرف كيف يستجيب له استجابة ملائمة ، فانه يبدأ فى التطلع حوله باحثا عن شخص يعينه على الخروج من هذا الموقف ، واذا راى انسانا يعتقد انه يستطيع مساعدته فانه يتبعه ويسير وراءه .

ويطلب الفرد دائما النصح ويلتمسه لحل مشكلة او تجنب مصاعب أو الوصول الى هدف مرغوب فيه ، واذا كانت الاراء التى يقدمهـا

الشخص الذى نلجأ اليه بهذا الصدد ناجحة ومثيبة ، فانه تقوى عادة العودة الى نفس المصدر من أجل طلب النصيحة فى المستقبل .

واخيرا ، فانه فيما يتصل بالقيام باعباء دور معين تحت قيادة معينة ، فانه فى كل مجتمع من المجتمعات تكون هناك مراكز ثابتة للقادة والاتباع ، والجيش خير مثال على ذلك ، فارقى الضباط رتبة يعتبر هو القائد ، بينما من دونه يكون تابعا . وتنظم القيادة بطريقة هرمية فى أغلب المؤسسات المدنية ، كالمؤسسات السياسية والاقتصادية والدينية والعلمية .

ويتمثل جزء كبير من التربية فى اكتساب العادات والمهارات والاتجاهات التى تتطلبها المكانات والادوار المتعددة التى قد يشغلها الفرد فى مجتمعه وينبغى على الفرد أن يتعلم كيف يسلك بالنسبة الى أولئك الاعلى او الادنى منه وكذلك المتماثلين معه . وينظم مجتمعنا بحيث يتلقى كل فرد قدرا معينا من التدريب على القيادة والتبعية ، يحدث هذا فى المدرسة وخارجها .

ويفضل الناس اتباع القائد الذى وجدوا عن طريقه افضل الثواب واقل العقاب ، ويرجع ذلك كما قلنا ، الى انه فى مرحلة مبكرة من الحياة يكتسب كل منا عادات معينة لطاعة الوالدين والمعلمين ومن هم فى مركز السلطة ، وكذلك نمى افكار عامة معينة تتعلق بنوع الناس الذين نضع فيهم ثقتنا ، والذين تؤدى طاعتهم الى الثواب ، وعلى هذا ، فان من الصفات الرئيسية للقائد ان تكون شخصيته مزيج من شخصية الاباء والمعلمين والناصحين الحكماء الذين اثبنا من السير وراءهم واتباعهم فى الماضى .

ويجب ان يبذل الاباء والمعلمون كل ما يمكن من جهد لتدريب الاطفال والتلاميذ وتعليمهم وتثقيفهم من اجل انتخاب القادة الاكفأ والافضل، وعلى تعلم احترام من هم أكبر منهم سنا والاعلى مركزا ومقاما .

ومن الخطأ أن نفترض أن القادة السياسيين يصلون الى مراكزالقيادة الشعبية فجأة وبين يوم وليلة ، ولكن هذه القيادة تتأكد بما تقوم به القائد من اعمال لتحقيق الانتصارات واكتساب الامجاد ، وعندئذ يمكن قبوله كقائد يمثل يمن الحاضر وامل المستقبل . ويزداد التفاف الناس حول القائد بوجه خاص اثناء الازمات وعندما يكون الموقف محيرا ومربكا ومعقدا والجو ملبدا بالغيوم ، وعندما يكتشف الناس بالخبرة والممارسة

والتجربة انهم يسيرون خلف قائد حكيم شـــجاع فانهم يولونه حبهم .. واحترامهم وثقتهم المطلقة فى حل بقية مشاكلهم والوصول بهم الى بر الامان والرفاهية . ويصبح هذا القائد رمزا لحب المواطنين لوطنهم وينظر اليه على انه تجسيد لما تعلمه الافراد من حب وطنهم والدفاع عنه .

فهرست الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٤/١٧٧٠

كتب للمؤلف :

١ ــ علم الاجتماع .

٢ ــ نيجيريا : الدولة والمجتمع .
دراسة فى علم الاجتماع
الأفريقى .

دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧